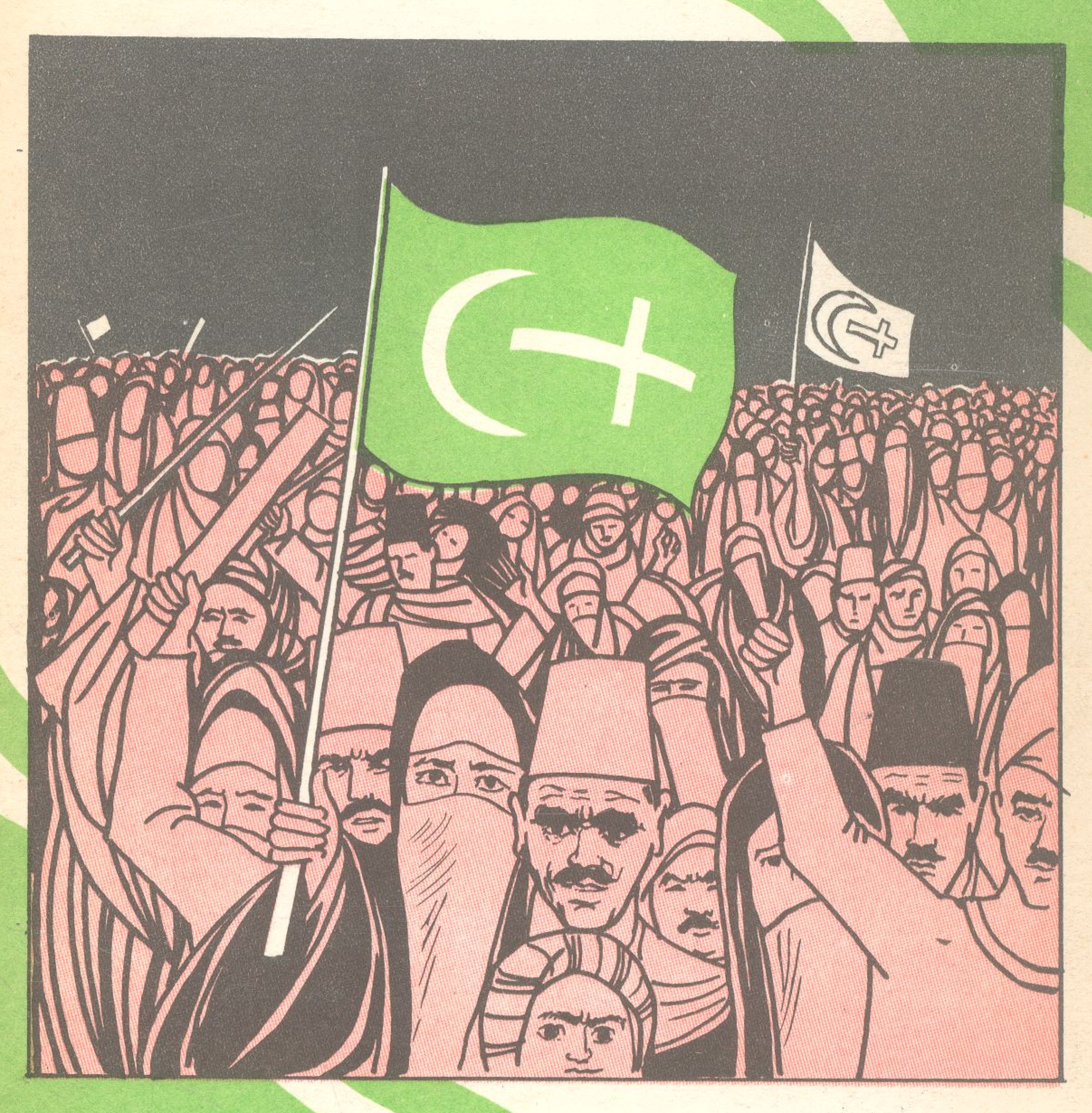
إقرأ

سجين ثورة ١٩١٩



الدكتور محمد مظهر سعيد

دار المعارف بمصر

عدد ممتاز

١٠ ص



تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان



دار المعارف بمصر

بأسلوب اليوم وتفكير الغد

إهـــــــــداء٢٠٠٧

الأستاذ / عبد الغنى أبو العينين
جمهورية مصر العربية

الدكتور محمد مظهر سعيد

سجين ثورة ١٩١٩

اقرأ ٣١٦

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣١٦ - أبريل سنة ١٩٦٩

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.ع.م.

بسم الله الرحمن الرحيم

« الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ ، والذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ، فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيطَانِ ».

« فَسَوْفَ يَأْتِى اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، أَذِلَّة عَلى المؤْمِنِينَ أَعِزَّة عَلى الكَافِرِين . يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِم »

« فَلْيُقَاتِلْ فِى سَبِيل اللهِ الَّذِين يَشْرُون الحياةَ الدُّنْيَا بالآخِرَةِ ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِى سَبيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » .

« إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أُولَئِك يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ ، واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

«وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمِ يُرْزَقُونَ ، فَرِحينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ» .

« فالَّذِينَ هَاجَرُوا وأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فى سَبِيلِى وقَاتَلوا وقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عنهم سَيِّئَاتِهِم وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللهِ ، واللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَاب » .

(قرآن كريم)

« قصص كفاح الشعوب ليس فيها فجوات يملؤها الهباء ، وكذلك ليس فيها مفاجآت تقفز إلى الوجود دون مقدمات . إن كفاح أى شعب جيلا بعد جيل بناء يرتفع حجراً بعد حجر. وكما أن كل حجر فى البناء يتخذ من الحجر الذى تحته قاعدة يرتكز عليها كذلك الأحداث فى قصص كفاح الشعوب . كل حدث منها هو نتيجة لحدث يسبقه ، وهو فى نفس الوقت مقدمة لحدث ما زال فى ضمير الغيب . فثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ مثلا ، هى تحقيق الأمل الذى راود شعب مصر منذ بدأ فى العصر الحديث يفكر فى أن يكون أمره بأيدى أبنائه ، وفى أن تكون له نفسه الكلمة العليا فى مصيره . وقام بمحاولات متعددة لم تحقق له الأمل الذى يتمناه ، فى فترة الغليان الفكرى التى عاشها بين الثورة العرابية وثورة ١٩١٩ . وكانت هذه الثورة الأخيرة بزعامة — سعد زغلول — محاولة أخرى لم تحقق الأمل الذى يتمناه » .

الرئيس جمال عبد الناصر — كتاب فلسفة الثورة

« إننا اليوم نبدأ مرحلة جديدة فى تاريخنا ، ويجب أن نأخذ من ماضينا عبرة . ففى سنة ١٩١٩ قامت ثورة فى مصر

جمعت جميع أبنائها من أجل الأهداف الكبرى ، من أجل الأهداف الاجتماعية والتخلص من الاستعمار . واستطاع الشعب أن يجبر الملك والاستعمار على أن يطأطئوا الرؤوس . وسارت مصر بعد أن اعتقدت أنها حققت ما تصبو إليه ، وأعلن دستور ١٩٢٣ . وكان دستور ١٩٢٣ ثمرة كفاح الشعب . واستشهد أبناء مصر . ولم يكن دستور ١٩٢٣ منحة منهم كما قالوا ، ولكن الشعب استطاع بجهاده وكفاحه أن يجبرهم على إعلان دستور ١٩٢٣ . ولكن هل طبق ؟ أبداً . لقد كان دستور ١٩٢٣ خدعة . كان الشعب يمثل أهدافاً واحدة قوية . كان الشعب يمثل آمالا واحدة . لأن الشعب الذى قام بالثورة كان يهدف إلى عدالة اجتماعية نظيفة . كان يعتقد أنه سيسير فى هذه الأهداف ، لقد انتكست ثورة ١٩١٩ ولم يكن الشعب هو السبب ، ولكن هؤلاء الذين كانوا يطمعون فى الاستغلال والتحكم فى الشعب » .

الرئيس جمال – خطبة الشرقية ٥٦/١/٢٢

« تحية إلى الأجيال الماضية المجاهدة ، لقد استشهد أناس من هذا الشعب بل مات نساء من أبناء هذا الشعب . استشهدوا

يحملوا العلم وخرجوا ينادون بالحرية: وينادون بحق الشعب فى الحياة . واليوم ونحن نجنى هذه الثمرات ونتمتع بالحرية ، ونحن نبدأ فجر حياة جديدة، وتهب علينا نسمات الحرية، نشعر بجهود من سبقونا ، بجهود من استشهدوا فى سبيل هذه الحرية . اليوم ونحن نبدأ فترة جديدة من تاريخ هذا الوطن نتجه إلى الماضى ونحيي الأجيال الماضية التى لم تضعف ولم تتخاذل ، ولكنها قاومت وقاتلت واستبسلت حتى استطعنا فى هذا الجيل أن نحقق هذا النصر » .

الرئيس جمال – خطاب يوم النصر ١٩/٦/٥٦

« إن وادى النيل لم تنقطع فيه أصوات النداءات الثورية فى مواجهة الإرهاب المتحكم الذى تسنده قوى الاحتلال البريطانى الأجنبي والمصالح الدولية الاستعمارية . إن قوة الاحتلال البريطانى العسكرية ومؤامرات المصالح الاحتكارية الاستعمارية والإقطاع الذى أقامته أسرة محمد على . ذلك كله لم يستطع أن يطفئ شعلة الثورة على الأرض المصرية . لقد سكت " أحمد عرابى " ولكن صوت " مصطفى كامل " بدأ يجلجل فى آفاق مصر . ومن عجب أن هذه الفترة التى ظن فيها

الاستعمار والمتعاونون معه أنها فترة الجمود كانت من أخصب الفترات فى تاريخ مصر بحثاً عن أعماق النفس وتجميعاً لطاقات الانطلاق من جديد . وكانت تلك مقدمة موجة ثورية جديدة ما لبثت أن تفجرت سنة ١٩١٩ ، بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، وبعد خيبة الأمل فى الوعود البراقة التى قطعها الحلفاء على أنفسهم خلال الحرب ، وقف " سعد زغلول " فى قمة الموجة الثورية الجديدة يقود النضال الشعبى العنيد الذى وجهت إليه الضربات المتلاحقة من مائة عام متواصلة دون أن يستسلم أو ينهزم . إن ثورة الشعب المصرى سنة ١٩١٩ تستحق الدراسة ، فإن الأسباب التى أدت إلى فشلها هى نفس الأسباب التى حركت الثورة سنة ١٩٥٢ » .

ميثاق العمل الوطنى – الباب الثالث

رسالة كريمة

من المؤرخ العربي الكبير المرحوم الأستاذ عبد الرحمن الرافعي

الأستاذ الدكتور محمد مظهر سعيد

وبعد . . . .

تسلمت خطابك الكريم ومعه الخلاصة القيمة الممتعة للكتاب الذى تنوى أن تسجل فيه ثورة أسوان سنة ١٩١٩ ، والدور الوطنى العظيم الذى قمت به مع زملائك الوطنيين الأحرار . وإنى لأعجز عن أن أفيك حقك من الشكر لأنك ذكرتنى بالخير وأتحفتنى بهذه الوثيقة التاريخية الهامة ، وكنت كما تعلم قد سجلت أحداث هذه الثورة فى كتابى — ثورة ١٩١٩ — مستنداً إلى ما ذكرته الصحف وما وصل إلىّ من وثائق ومستندات وما سمعته بنفسى ممن اشتركوا فيها ، ولكنى كنت أشعر دائماً بأن هناك حلقة مفقودة فى السلسلة وفصلا ناقصاً فى تاريخ هذه الثورة ، فليس من المعقول أن لا يشترك إقليم أسوان فى هذه الثورة التى عمت القطر ، وقد وقفت فى سرد الحوادث عند أسيوط ، وعذرى أن الصحف لم تشر إليها ولم يذكر أحد من أهلها شيئاً عنها . وقد سدت رسالتك الكريمة

هذا الفراغ وأكملت النقص وأصبحت السلسلة كاملة الحلقات . وايتك كنت أرسلتها قبل طبع كتابى . وإنى لأرجو أن يمد الله فى الأجل حتى أضمها وأنوه بها فى طبعة جديدة للكتاب ، فإن جهادكم فى سبيل الله والوطن عمل قد ينبغى أن يخلده التاريخ الحديث ، وواجبك الوطنى يحتم عليك أن تسارع بإتمام كتابك الذى وعدت به . والمكتبة التاريخية فى أمس الحاجة إليه .

ولك ولزملائك الأبطال الأحياء خالص الشكر وعظيم التقدير ، وللزميل الذى استشهد واسع الرحمة وفسيح الجنان ، ولكم جميعاً من الله المثوبة وخير الجزاء

القاهرة فى ١٩٦٣/٢/٩

المخلص

عبد الرحمن الرافعى

رسالة كريمة

من الأستاذ الدكتور محمد أنيس

أستاذى الفاضل الدكتور محمد مظهر سعيد

تحيه طيبة وبعد

فقد قرأت مذكرتك المستفيضة وفى اهتمام بالغ عن الدور الذى قمتم به فى أحداث ثورة ١٩١٩ بمدينة أسوان، ووجدتها فى غاية الأهمية من الناحية التاريخية . وإنى أستميح سيادتكم فى الإشارة إليها فى كتابى الذى أقوم بطبعه الآن تحت عنوان: دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩، وهو دراسة مبنية على وثائق ومراسلات عبد الرحمن الرافعى .

وإنى إذ أشكر لسيادتكم هذا الجهد العظيم فى سبيل إحياء وبعث أمجاد الحركة الوطنية فى مصر أرجو أن تتقبلوا خالص شكرى وتقديرى لشخصكم ولماضيكم السياسى العظيم .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

المخلص

محمد أنيس

أستاذ التاريخ الحديث بجامعة القاهرة

القاهرة فى ١٩٦٣/٢/١٤

مقدمة

شهدت مصر فى هذا العصر سلسلة مترابطة الحلقات من ثورات ثلاث ، اختلفت فى عناصرها وظروفها ، وتباينت فى أساليبها ووسائلها ، ولكنها تتفق فى هدف واحد ، وهو القضاء على النفوذ الأجنبي المفسد المستغل والحكم الداخلى الفاسد المستبد . وكيفما كانت النتائج فإن هذه الثورات لعبت دورها وغيرت مجرى تاريخ مصر المعاصر لأكثر من سبعين عاماً .

الأولى ثورة ١٨٨٢ — قام بها الجيش بقيادة أحمد عرابى.

والثانية ثورة ١٩١٩ — قام بها الشعب بزعامة سعد زغلول .

والثالثة ثورة ١٩٥٢— قام بها الشعب والجيش معاً برئاسة جمال عبد الناصر أمد الله فى عمره وزاده توفيقاً ونصراً على نصر .

وقد فشلت ثورة ١٨٨٢ بسبب الخيانة والغدر ، وانتهت بالاحتلال البريطانى الذى ثبت أقدام النفوذ الأجنبي والحكم الفاسد ومكن للإقطاع المستبد ورأس المال المستغل .

وفشلت ثورة١٩١٩ بسبب التنافس على السلطة والتطاحن السياسى الحزبى وتفرق الصفوف ، وانتهت بتصريح ٢٨ فبراير الذى حول الحكم إلى ديمقراطية مزيفة وبرلمانية هازلة .

ونجحت ثورة ١٩٥٢ لأن القائمين بها كانوا رجالا من صميم الشعب وضباط الجيش آمنوا بربهم ووطنهم وزادهم الله هدى وتوفيقاً. وبجهاد الشعب والجيش حولوا الملكية الفاسدة إلى جمهورية ، وأقاموا بناء المجتمع الجديد على أساس الكفاية والعدل ، وحققوا الحرية السياسية والاجتماعية والديمقراطية السليمة والاشتراكية العادلة .

وقد مضت وانقضت خمسون عاماً كاملة على ثورة١٩١٩ . ونصف قرن من الزمان ليس بالوقت القصير . والذين قاموا بها ، منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، ومعظمهم يعزف عن تذكرها وذكرها . فقد دبرها الوطنيون الأذكياء وقام بها المجاهدون الأبرياء واستغلها تجار السياسة والوسطاء الأدعياء . أما الذين اكتووا بنيرانها ، فسجنوا وعذبوا وقتلوا واستشهدوا فراحوا طى النسيان وكان نصيبهم الجحود والنكران .

وأرخ المؤرخون وكتب الكتاب عن ثورة ١٩١٩ . ولكن ما زالت هناك ثغرات يجب أن تسد،وصفحات مطوية من

تاريخها يجب أن تنشر . فإن أحداً لم يذكر ثورة إقليم أسوان ، رغم ما كان لأهله من دور كبير خطير مشرف فيها ، بل إن أبناء أسوان البارزين —وعلى رأسهم المرحومان اللواء صالح حرب والأستاذ عباس محمود العقاد— لم يسجلوا شيئاً عنها لأنهم كانوا بعيدين عن مسرح الحوادث فى ذلك الوقت . ونحن الذين قمنا بها واكتوينا بنارها منعتنا الظروف القاهرة من التحدث أو الكتابة عنها ، فقد اشتبكنا بعدها فى قضايا سياسية أخرى ، وكان مجرد ذكر اشتراكنا فى ثورة ١٩١٩ يسىء إلى مركزنا وعملنا وأمتنا إساءة بالغة وربما زج بنا فى السجن مرة أخرى ، ثم سافرت إلى إنجلترا لدراسات التخصص العليا عدة سنوات ، وعدت بعدها سنة ١٩٢٩ فى عهد حكومات رجعية لا تطيق مجرد الإشارة للثورة فضلا عن الإشادة بها لما فى ذكرها من نبش لماضى الجهاد الذى دفنوه وإثارة للشعور القومى من جديد ضد الاحتلال والحكم المحلى الفاسد. ومرت سنوات طويلة وأصبحت الثورة نسياً منسياً وتضاءلت أمام الثورات المتعاقبة حتى سنة ١٩٣٥ . وجاءت ثورة ١٩٥٢ البيضاء المباركة ، وأشار بطلها ورائدها الرئيس جمال عبد الناصر فى مختلف المناسبات بجهود السابقين وتضحياتهم فى ثورتى ١٨٨١ و ١٩١٩ .

وعلى الرغم من أن ثورة أسوان لم تقترن بالعنف والفوضى والتخريب والتقتيل ولم يصبها من ويلات السلطة العسكرية البريطانية إلا النزر اليسير بالقياس إلى ما أصاب الجهات الأخرى . كالقاهرة والعزيزية والواسطى وديرمواس — فإنها أدت للبلاد خدمات جليلة كان يجب أن تسجل لها بالفخر ، ويكفى أن نذكر إحباط الخطة التى دبرها المهندسون الإنجليز لنسف خزان أسوان ، ولو قدر لها الشيطان أن تنجح لكانت كارثة كبرى .

وقد رأيت من واجبي بعد هذا الزمن الطويل أن أنشر الآن ثورة أسوان تلبية لما نوه به الرئيس جمال فى خطبه وما أشاد به الميثاق واستجابة لطلب المؤرخين العظيمين ، ليكون فى هذا تذكرة للأجيال الماضية ، وتبصرة للأجيال الصاعدة بجهاد الآباء والأجداد الراحلين والحاضرين ، أجل لقد مضى على هذه الثورة نصف قرن ولكنها لا تزال حية فى خاطرى ، وكل دقيقة منها تعيها ذاكرتى . وقد سجلت فى هذا الكتاب ما لقيناه من مواقف مضحكة ومآس مبكية ، وأحداث سياسية ووثائق تاريخية لم ترد فى كتب الآخرين ، وأحاديث طويلة مع كبار المسئولين الإنجليز والمصريين تكشف عن استبداد الاحتلال

الأجنبي وفساد الحكم المحلى . وتفضح عقلية المستعمرين المتغطرسين ونفسية بعض الموظفين المصريين الخانعين النفعيين، إلى جانب ما ذقناه من عذاب وشقاء ونكران للجهد والتضحية، في الوقت الذى حصل فيه النهازون . الذين جعلوا من حبة جهادهم قبة لتضحية مزعومة ، على المناصب الرفيعة والمكانة المرموقة والمغانم المادية ، ولكن رغم هذا كله لا أشعر بشيء من الندم أو ظل من الألم ، فكل تضحية بالغة ما بلغت تهون في سبيل الوطن، بل إنى رغم تقدم السن ما زلت على سابق عهدى واستعدادى للبذل والتضحية مرة ومرات بحكمة الشيوخ وعزمة الشباب إذا دعا داعى الوطن . ملبياً نداء الرئيس الملهم بطل الثورة البيضاء ورائد البعث الجديد : جمال عبد الناصر .

والله ولى التوفيق .

محمد مظهر سعيد

بذرة الثورة

ولدت أنا « محمد مظهر سعيد » فى ٢٠ أغسطس ١٨٩٧ ونشأت فى أسرة غرست فى نفسى منذ النشأة الأولى بذرة حب الدين والوطن وروح الثورة والجهاد ضد أعداء البلاد وكراهية النفوذ الأجنبي المفسد المستغل والحكم الداخلى الفاسد المستبد. فقد كان أبى مهندساً فرنسى الثقافة، بعد أن تخرج فى مصر أتم تدريبه الميكانيكى بفرنسا والبحرى بتركيا ، وعاد إلى نظارة الأشغال العمومية فلقى من رؤسائه الإنجليز عنتاً كبيراً كأنهم حسبوه فرنسياً. وواتته فرصة التخلص منهم عندما ندب مهندساً بشركة السكر فى فابريقة الشيخ فضل مركز بنى مزار. ولكنه كان كالمستجير من الرمضاء بالنار، فهناك واجهته صورة بشعة من صور التحيز الجنسى والتفرقة العنصرية ، فالعمال الأجانب ، فضلا عن المهندسين والمديرين كانوا يسكنون فيلات جميلة ذات حدائق ومرافق أرقى من مساكن المهندسين المصريين ، ولهم ناديهم وملاعبهم « وكانتيناتهم » ، ومرتباتهم أعلى وهم مجرد عمال. أما المهندسون والمديرون الأجانب فكانوا

أنصاف آلهة ، لا يختلطون بزملائهم المصريين فى غير أوقات العمل .

ولمست أنا بنفسى، على صغر سنى ، هذه التفرقة عند اللحاق بمدرسة الشركة ، ولم تكن هناك مدرسة غيرها ، فالدراسة فرنسية، والكتب تشيد بمجد فرنسا الأم. والدروس تنتهى بهتاف « تحيا فرنسا »، والأولاد الأجانب لهم فصول وملاعب وامتيازات خاصة ، ونحن نتعلم بمصروفات وهم بالمجان، فبدأت وأنا فى الخامسة من عمرى أشعر بما يشعر به أبى من كراهية للأجانب.

وكان أبى بحكم هذه الظروف يقضى معظم وقت فراغه بالمنزل ، فيسرد لنا تاريخ الحروب الصليبية، وتآمر الغرب على الدولة الإسلامية ، وحملة نابليون، ومؤامرة تحطيم الأسطول المصرى فى « نفارين » ، وفساد حكم الأسرة الخديوية، وعهد إسماعيل وديونه ، والوزراء الأجانب ، والثورة العرابية ، واحتلال بريطانيا لمصر بالغزو والخيانة والرشوة . ويشيد بذكر المصريين الوطنيين الذين جاهدوا بالسلاح لتحرير مصر — من أحمس الأول وعمرو بن العاص وصلاح الدين الأيوبى وبيبرس، والذين كافحوا بألسنتهم وأقلامهم — من جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده وعبد الله النديم .

وكنت أزور أم والدتى بأسيوط ، وهى تحكى لى عن أجدادى من قادة الجيوش وأمراء البحار الذين حاربوا واستشهدوا دفاعاً عن الملة والدولة ، وآخرهم لطيف باشا الكبير الذى كان حاكماً عامًّا للسودان قبل الثورة المهدية ووزيراً فى عهد إسماعيل ، ومع ذلك كان من مؤيدى الضباط المصريين ضد حكومة « نوبار » و «الوزراء الأجانب» و «الخديوى» نفسه .

وكنت أزور أم والدى العربية فى بنى سويف فتحكى لى عن أبطال الإسلام ، وعدل عمر ، وصلاح عمر بن عبد العزيز ، وبطولة خالد بن الوليد ، وأبى عبيدة بن الجراح ، وتذكرنا بتاريخ جدها الأكبر — عبد الرحمن كتخدا — نائب والى مصر وشيخ البلد الذى كرس حياته لتعميره وإصلاح حال الشعب فاستوجب غضب الأمراء المماليك مما اضطره فى أواخر أيامه إلى الهجرة للحجاز . وتختم الحديث بالفاتحة على روح جدى زوجها « صالح بك سليمان » أركان حرب الجيش المصرى الذى استشهد فى السودان فى موقعة « شندى» .

وكانت أمى بحكم ثقافتها الإيطالية تحكى لى عن «ماتسينى» و « جاريبالدى» محرر إيطاليا وموحد ولاياتها . وحكى لى والدى

مأساة « دنشواى» وأرانى مجلة مصرية بها صورة رجل مصرى كتب تحتها :

أنت جلادنا فلا تنس أنا قد لبسنا على يديك الحدادا

وسألته عن معنى « جلاد» فشرحها لى وهو يلعن الخونة النفعيين .

سنة ١٩٠٦

بدأت تجاربى السياسية القاسية سنة ١٩٠٦ عقب مذبحة دنشواى ، وأنا فى الثامنة من عمرى بالسنة الأولى بمدرسة عباس الابتدائية بالقاهرة ، بعد أن نقلوا والدى إلى نظارة الأشغال ، فقد زار المدرسة مفتش إنجليزى . ورأيت وجهه الأحمر وطربوشه القذر فثارت ثائرتى وقلت لزملائى « هذا جلاد دنشواى » ؛ وسرعان ماقمنا بمظاهرة ، لعلها أول مظاهرة قام بها التلاميذ فى مصر — وأخذنا نهتف « فليسقط جلاد دنشواى» فلتسقط « إنجلترا » — وهرول الناظر « أحمد بك كامل اليمانى » إلى الشرفة وخلفه المفتش يتميز غيظاً ، ونظر إلينا ونحن نطوف بحوش المدرسة الصغير وأنا فى المقدمة ، فأشار نحوى وقال للناظر : « هات الولد ده » . وسرعان ما أمسك بى الفراش العملاق وألقى بى أمامهما وقال المفتش فى حدة وانفعال : « حضرة ناظر . دى ولد مش كويس . لازم طرده من المدرسة» فأجاب الناظر فى تردد: لكن يا جناب المفتش دا طفل صغير لا يعرف ما يفعل . فأجاب جنابه : «بكره لما يكبر يبقى مجرم



مذبحة دنشواى

ضد إنجلترا زى مصطفى كامل ، افصله نهائياً » فأجاب الناظر : ليس الفصل النهائى من حقى . فقال المفتش : « افصله أسبوعاً وبعدين بيجى أمر جناب المستشار » . وقبل نهاية الأسبوع جاء الأمر بالفصل النهائى لتلميذ صغير فى الثامنة من عمره يهدد الإمبراطورية البريطانية عندما يكبر مثل « مصطفى كامل » .

وكان من الممكن أن ألتحق بنفس المدرسة فى العام التالى لأنها المدرسة الأميرية الوحيدة بالحى ولكن تضيع منى السنة ، وأنا مجتهد لا أريد أن أفقد سنة من عمرى . فلم يكن هناك بد من الرحيل إلى جدتى فى بنى سويف وأتقدم لامتحان القبول للسنة الثانية باسم جديد بدل اسم شهادة الميلاد — وهو « محمد حسن سعيد » . فصار اسمى — « محمد مظهر سعيد » تيمناً باسم عم والدى — المهندس « محمد باشا مظهر » . ونجحت فى الامتحان ودخلت السنة الثانية . وكان ناظر المدرسة « أحمد بك حسن » صديقاً لوالدى وعمى فلم يثر أى إشكال .

وحلت العقدة الأولى ولكنى لم أهدأ . فأخذت أحفظ خطب « مصطفى كامل » وأناشيد الشيخ « صادق عمران » الوطنية وأترنم بها وأرددها مع التلاميذ . وفى سنة ١٩٠٨ توفى مثلى

الأعلى « مصطفى كامل » إلى رحمة الله . وأقام المحامون حفل تأبين . واختارني المحاميان الشقيقان « سيد زكي » و « محمود كامل » وكانا صديقين حميمين لعمي ، لإلقاء كلمة أعدها مدرس اللغة العربية ، فيها نثر وشعر وألبسوني شريطاً من الحرير الأسود على قميص أبيض ، وصعدت إلى المنصة واتجهت إلى صورة « مصطفى كامل » وقلت : السلام عليك يا بطل الأمة ، يا زعيم الأمة ، يا من قلت : بلادى بلادى لك حبي وفؤادى ، أنت أنت الحياة ولا حياة بدونك يا مصر . وأردت أن أتلو من ذاكرتي عبارته المشهورة : لو انتقل قلبي من الشمال إلى اليمين أو تزحزح الأهرام من مكانه المكين لما حدت عن مبدئي : فقلت : لو انتقل قلبي ، لو انتقل قلبي ، ونسيت الباقي ، وأرتج عليّ ، فأسعفتني أذنى الموسيقية فقلت مرتجلا — لو انتقل قلبي إلى اليمين من الشمال أو تزحزح الأهرام من تلك الرمال لما حدت عن مبدئي . وارتجت القاعة بالتصفيق الحاد المتواصل ، ففزعت من هذا الموقف ونزلت من المنصة مسرعاً والدموع فى عيني وأنا أحيي صورة مصطفى كامل ، وأسرع الأستاذ « سيد زكي » فتلقاني واحتضنني وقبلني ، وقال : هذه أبلغ خطبة يا « مظهر » . ستكون مصطفى كامل الثانى .

وفى هذه المرة وشى بى ضابط البوليس المصرى ، ففصلت من المدرسة أسبوعين بأمر الوزارة لاشتغالى بالسياسة ، وكانت كلمة السياسة بعبعاً يقض مضاجع الحكومة ، ولو كان السياسى طفلا مثلى فى العاشرة من عمره ، ورغم ذلك نجحت بتفوق وانتقلت للسنة الثالثة .

وحصلت على الشهادة الابتدائية سنة ١٩١٠ ، وكنت أتمنى أن أكون ضابطاً بالجيش أدافع عن الملة والدولة كما كانت جدتى التركية تقول ، وكانت المدرسة الحربية تقبل حاملى الابتدائية وساقطيها ولكن من المستحيل أن تقبلنى لصغر سنى . وعدت إلى القاهرة فقابلنى أبى بالتهنئة والترحيب ، وقال لى فى رقة وحنان : اسمع يا بنى ، أنا معجب بوطنيتك التى ظهرت بوادرها مبكرة ، وإن كانت عرضتك لتجارب خطيرة ، ولكن الله سلم فى المرتين ، وأنت بعد طفل غرير وما زلت فى طور التحصيل والطريق أمامك طويل ، والوطنية الحقة لا تكون بالقول وإنما بالعمل ، ولا عمل بغير علم . فإن كنت وطنياً حقاً فعليك أن تتفرغ لتحصيل العلم لا يصرفك عنه شىء ، وعندما تحصل على المؤهل العالى افعل ما شئت وكن زعيماً كمصطفى كامل .

والتحقت بالمدرسة الخديوية الثانوية ، واتصلت اتصالا مباشراً بالإنجليز لأول مرة ، وكنا وقتئذ ندرس جميع المواد باللغة الإنجليزية ما عدا العربى والرياضيات ، حتى الترجمة كان يدرسها المستر « جورج روب » ، وهناك وجدت الشيء الكثير مما صدمنى وأثار حفيظتى من جديد . فقد كانت الكتب المقررة تشيد بعظمة بريطانيا والخلق الإنجليزى السامى ، وتصور مصر وتاريخها وشعبها فى صورة بشعة تجعلها مثالا للجهل والفقر والمرض والكسل والتواكل والتخلف الذى لا دواء له . أما المدرسون البريطانيون فكانوا خليطاً عجيباً كشف النقاب عن زيف أسطورة بريطانيا العظمى والرجل الإنجليزى السوبرمان . فكان منهم قلة جديرة حقاً بالاحترام — الناظر المستر « فيرنس » الإرلندى كان يعامل الطلبة كأنهم أولاده و يرعى أعضاء الفرق الرياضية عامة وفرقة القسم المخصوص فى الجمباز خاصة ، وكنت أنا أحد أبطالها . والمستر « هيث » الأسكتلندى الوقور كان يشجعنى ويهدينى كتب الأدب الإنجليزى لتفوقى فى اللغة واتخذنى سكرتيراً له ، والمستر « براكنبرى » العالم اللغوى كانت له كتب مقررة فى متن اللغة . أما البقية فكانوا جهلاء أدعياء لا يحملون أى مؤهل علمى

أو تربوى . فالمستر « فوستر سميث » كان بائع إسفنج ، ولكنه خطاط (كاليجرافى) وله أمشق خط مقررة . والمستر « لوكاس » كان جاويشاً بالجيش البريطانى ومؤهله الرسمى أنه لاعب كرة ونطاط ورقاص ، ومع ذلك يدرس لنا الجغرافيا . ومدرس التاريخ المستر « فاولر » لا نعرف أصله ولكنه أجهل الناس بالتاريخ ، فكان يقرأ لنا كتاب — « دينوف » المقرر كأنه كتاب مطالعة ويتركنا نحفظه عن ظهر قلب . وتلك كانت خطة الاستعمار التى ينفذها المستشار المستر « دنلوب » فهو نفسه يقال إنه كان إسكافياً ، وكان هؤلاء الذى يحملون إلى جانب نقيصة الجهل ورذيلة الغطرسة يشتدون فى طلب العقاب لأقل هفوة لولا أن الناظر الإرلندى كان يكبح جماحهم .

ويبدو أن سياسة الغطرسة كان يوحى بها المستشار ، فقد كان لكل موظف إنجليزى بالوزارة قالب من الصفيح الأصفر به طربوش قذر كالح اللون من طول الاستعمال ، يحمله وراءه ساع أو فراش يفتحه له على الباب فيلبسه أثناء العمل فقط . وكان للمستشار بضعة قوالب يرسلها إلى عدد من الإدارات والمدارس إيذاناً بقرب زيارته ، فيسير العمل بها على أتم نظام ما دام الطربوش هناك . وأذكر أن المستشار فاجأنا

مرة بالفصل والباشا سكرتير عام الوزارة يسير وراءه فى خضوع ، وفجأة يناديه المستشار باسمه المجرد دون لقب فيهرع الباشا إليه وينحنى قليلا ويقول : نعم يا سيدى « يس سير » ، ويصدر إليه المستشار بعض التعليمات دون أن يلتفت إليه فيجيب : « حاضر يا سيدى » ، وفى نفس الوقت كان هذا الباشا مثال الغطرسة مع الموظفين المصريين وكأنه — صوت سيده المستشار.

ولا أدل على مبلغ سلطة المستشار التى كان يستمدها رأساً من المعتمد البريطانى ، حتى على الوزير . من أن مدرساً رفع للمستشار مظلمته فى قصيدة شعرية جاء فيها :

أشكو إليك — جريمة — الدنلوب

همى وغمى واشتداد كروبى

وأخبرنى زميل أنه عند عودته من إنجلترا أعطى الحمال الإنجليزى بقشيشاً سخياً وناوله بطاقة باسمه وعنوانه بمصر . وعندما سأله الحمال ماذا يفعل بالبطاقة أجابه فى بساطة : أرجو أن تحتفظ بها فإذا جئت لمصر ناظراً أو مفتشاً فاذكرنى بالخير .

وليس عجيباً أن يحتضن المستشار الجهلاء المتغطرسين ولكن العجب أن ترقيهم حكومتنا إلى وظائف كبيرة ليسوا أهلا لها ولا لهم دراية بها . فقد عين « فاولر » مديراً عاماً لقسم الحشرات

بوزارة الزراعة ، وعين « لوكاس » مفتشاً عامًّا لسجون الوجه القبلى ، وعين « كارتر » الذى كان رسام خرائط (كارتوجرافى) مديراً عامًّا لمصلحة المساحة ، أما « هيث » و « براكنبرى » والفنان الأصيل « حسين زكى » أستاذ الرسم بالمعلمين العليا وغيرهم فقد تقاعدوا وهم مدرسون كما كانوا . ولعل قول المتنبى :

وكم ذا بمصر من المضحكات ولـــكنه ضحك كالبكا

يصدق كل الصدق على مصر تحت حكم الاحتلال .

وامتلأت نفسى حقداً على الإنجليز الجهلاء المتغطرسين واحتقاراً للموظفين المصريين الأذلاء الخانعين ، وكلما همت نفسى بالنقد والاحتجاج تذكرت نصيحة الوالد فأكظم غيظى فى صدرى مرغماً مقهوراً .

واجتزت مرحلة الثانوى بنجاح مطرد وتفوق ، وحصلت على البكالوريا علمى سنة ١٩١٤ وأنا فى السادسة عشرة . ورغم فترة الهدوء تجمعت كل التجارب الماضية فأصبحت صخرة تجثم على صدرى ولا سبيل للتخلص منها إلا بالتفجير ، وقد حدث هذا الانفجار فعلا سنة ١٩١٤ ودفعتنى الأقدار رغم أنى وأنا لا أجيد السباحة فى خضم السياسة البعيد الغور المضطرب الأمواج .

سنة ١٩١٤

يرى بعض المؤرخين أن ثورة ١٩١٩ كانت نتيجة حتمية لأحداث سنة ١٩١٤ . ومهما يكن من أمر هذا الرأى فإن سنة ١٩١٤ كانت بالنسبة لى شخصياً سبباً مباشراً للدور الذى شاءت الأقدار أن أقوم به فى ثورة أسوان سنة ١٩١٩ . فقد قدمت أوراقى لمدرسة الطب وانتظرت النتيجة . وفى فترة الانتظار أعلنت الحرب العالمية الأولى . وفى ٤ أغسطس أعلنت إنجلترا الحرب على ألمانيا وانضمت لحليفتها فرنسا . وفى اليوم التالى صدر قرار لمجلس وزراء مصر يخول القوات البريطانية البرية والبحرية حقوق الحرب فى الأراضى والمياه المصرية ؛ وقد أثار هذا القرار سخط طلبة المدارس العليا والمثقفين والصحافة عامة والحزب الوطنى خاصة .

وفى أواخر سبتمبر دعينا نحن الطلبة الجدد لمقابلة ناظر مدرسة الطب « الدكتور كيتنج » وكان رجلا استعمارياً قحاً غريب الأطوار وحاكماً بأمره يدير المدرسة كما يحلو له ، غير خاضع لسلطة الوزارة وقوانينها ولوائحها ؛ ولا للمعتمد

البريطانى نفسه ، وكان من شذوذه أن يقف الطالب أمامه وقفة انتباه عسكرية ، فيلقى سؤاله بالإنجليزية ويترجمه إلى العربية سكرتيره الحاصل على الابتدائية بلغته الركيكة ، ثم يترجم رد الطالب إلى الإنجليزية ، وهكذا تستمر المهزلة والويل للطالب الذى يجيب بالإنجليزية رأساً . وكنت صغير السن والجسم إلى درجة ملحوظة بالقياس إلى بقية الطلبة ، ولما جاء دورى نظر « كيتنج » إلى السكرتير بغضب وقال :

ماذا يفعل هذا الطفل فى مدرستى ؟ وكيف دخل ؟ إنها ليست روضة أطفال . فأجبته بالإنجليزية منفعلا ومحتجاً : أنا لست طفلا ، وهذه مدرسة مصرية وليست مدرستك . وحدثت مشادة حامية أنهاها هذا العملاق الأحمق بركلة قوية من رجله الضخمة طرحتنى أرضاً ، فجريت هرباً منه فطاردنى حتى باب المدرسة ، ثم فصلنى وأعاد الأوراق بالبريد لوالدى ، وذهب والدى إلى كبير المهندسين الإنجليز يرجوه التدخل فى الأمر معتقداً أنه سينصفنى ، فأحاله إلى مستشار الرى « السير جارستن » فأعطاه خطاب توصية ، ما كاد الدكتور « كيتنج » يلقى عليه نظرة عابرة حتى مزقه ، وألقى به فى

سلة المهملات وطرد والدى شر طردة ، وكان تعقيب المستشار بعدئذ أن الدكتور « كيتنج » حر فى مدرسته ولا يستطيع أحد أن يراجعه فى شيء . وعلى كل فهو دائماً على حق لأنه إنجليزى والإنجليز لا يخطئون ولا يظلمون ، وزادنى هذا الحادث كراهية للاحتلال والاستعمار ، وأصبحت أعتقد أن الإنجليز لا يخطئون ولا يظلمون فحسب وإنما هم يظلمون ويبررون الظلم بأنهم معصومون .

ولم يكن بد من اللحاق بمدرسة المعلمين العليا لأن المدارس الأخرى كانت قد استوفت حاجتها من الطلاب ، وانتظمت فى نفس الفصل مع طلاب نوابغ أتموا مراحل التعليم فى هدوء وسلام لأنهم لم يشتغلوا بالسياسة ، منهم المرحومان الدكتور « مصطفى مشرفة » و « إسماعيل القبانى » ، و« السيد محمد يوسف » وزير التربية الأسبق .

وكانت مصر وقتئذ تغلى كالمرجل والشباب المثقف يتحفز للثورة ، وخاصة طلاب الحقوق والأزهر ودار العلوم ، فكنا نحضر الاجتماعات السياسية فى دار الحزب الوطنى ومدرسة مصطفى كامل ونادى المدارس العليا والأزهر ، وبادرت الحكومة يوم ٨ أكتوبر بإصدار قانون بمنع التجمهر ، وفى

٢ نوفمبر أصدر قائد قوات الاحتلال الجنرال « مكسويل » إعلاناً بالأحكام العرفية وفرض الرقابة على الصحف . وفى ٥ نوفمبر دخلت تركيا الحرب مع المحور ضد الحلفاء . وفى يوم ١٨ منه أصدر الجنرال « مكسويل » إعلاناً آخر بوضع مصر تحت الحماية البريطانية . وفى اليوم التالى صدر تبليغ من وزير خارجية بريطانيا بخلع الخديو « عباس الثانى » وكان يصطاف بتركيا على عادته كل عام ، وتولية عمه « الأمير حسين كامل » سلطاناً على مصر إيذاناً بزوال السيادة التركية ، مخالفاً بذلك قانون وراثة العرش . وتعيين « السير مكماهون » أول مندوب سام بريطانى . وبهذا أخذت مصر وضع المستعمرات البريطانية . فازداد سخط الشعب على بريطانيا والسلطان الذى قبل هذا الوضع المهين . ولم نكن نعلم أنه اضطر للقبول حرصاً على مصر وأسرة « محمد على » لأن الإنجليز هددوا بتعيين « أغا خان » زعيم طائفة الإسماعيلية واستدعوه فعلا للقاهرة .

وبهذه السابقة الجريئة التعسفية أطلقت بريطانيا يدها فى كل شئون مصر الخارجية والداخلية ، واستولت على المحاصيل والأقوات والأرزاق وخيرات البلاد والدواب لصالح القوات

المحاربة ، وجندت الفلاحين* فى فرق العمال المصريين للعمل فى صحراء سيناء . وانطلق جنود الاحتلال يعيثون فساداً فى البلاد ، وصودرت الصحف الوطنيـــة المعارضة . ومنعت المظاهرات بالقوة المسلحة بعد أن فشلت خراطيم المياه فى تشتيتها . وقام طلاب المدارس العليا بالإضراب والخروج بمظاهرة تطوف بالفنادق الكبرى والسفارات والقنصليات معلنة الاحتجاج على الحماية ثم تتجه إلى جريدة الشعب للهتاف بحياة « أمين الرافعى » الذى عطل الجريدة يوم صدور إعلان الحماية حتى لا يضطر إلى نشره . ولكن المظاهرة شتتت فى ميدان الأوبرا .

وتفادياً لقانون منع المظاهرات والتجمهر واستبداد البوليس رأت لجنة المدارس العليا بعد إغلاق النادى أن ينقسم الطلاب إلى جماعات رباعية تجتمع كل جماعة منها فى مكان مأمون للتذاكر فى الشئون ورسم الخطط واتخاذ القرارات وإبلاغها لمندوب اللجنة العليا . وكانت جماعتنا تجتمع فى مقاهى باب الخلق والحلمية الجديدة وعابدين والسيدة زينب . وتغير المكان فى كل مرة . وبثت وزارة الداخلية عيونها فى كل مكان يجتمع فيه الطلبة . ولاحظنا أن شخصاً غريباً يندس بيننا

مدعياً أنه طالب ثم يفتح باب الحديث فى السياسة فنبادر بلعب الشطرنج . وفى أثناء اللعب نتبادل كلمات رمزية اتفقنا عليها نفهم منها موعد الاجتماع التالى ومكانه ، بل إننا تعلمنا لغة الأصابع ونقرات شفرة المورس . وقبيل منتصف الليل ينصرف كل منا فى طريق ونترك الجاسوس حائراً فى أمرنا ، ثم يجتمع الشمل مرة أخرى بدار المرحوم « مصطفى بك أباظة » بحارة قواديس خلف سراى عابدين. فنتسلم منه نشرات مطبوعة على ورق أصفر كالكتب الأزهرية بعنوان « الحق أحق أن يتبع » وكانت تبدأ بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وتنتهى بالدعوه للثورة ضد الاحتلال والحكومة الموالية له ، فنوزعها على الأصدقاء والزملاء .

وبدأت الشرارة الأولى بمدرسة المعلمين العليا فى اليوم التالى لإعلان الحماية إذ دخل المستر « هاردى » أستاذ الطبيعة بغير طربوشه مخالفاً التقليد المتبع لأول مرة وفى عروته وردة حمراء كبيرة ، وتطلع إلينا فى زهو وكبرياء ولم يلق التحية كالمعتاد ، وفاجأنا بقوله فى صلف وغطرسة ، وكأن هذا الحمل الذى كان وديعاً انقلب إلى ذئب كاسر : « ا عوا يا أولاد مصر ، أنتم من اليوم رعايا بريطانيا العظمى سواء رضيتم أم أبيتم ، وأهنئكم

على هذا الشرف العظيم الذى لا تستحقونه » . فوجمنا قليلا وألجمت الدهشة ألسنتنا . ثم هب الطالب « محمد حبيب أحمد » رفيق الجهاد والثورة ، وقال بصوت جهورى : اسمع يا مستر « هاردى » ، أولا نحن لسنا أولاداً وإنما نحن رجال . فانبريت بدورى قبل أن يتم كلامه وقلت : وثانياً ، نحن لسنا رعايا بريطانيين ولن نكون كذلك أبداً . نحن مصريون مستقلون ولنا الشرف أن نكون ونظل كذلك ، أما أنتم فمستعمرون ، مغتصبون . وساد الهرج والمرج ، وصاح بقية الطلاب : اخرج اخرج ، فغادر الفصل غاضباً وشكانا للناظر « ا . ب . بك » الذى عنفنا أمامه تعنيفاً شديداً وطلب منا الاعتذار له فأبينا ففصلنا أسبوعاً . فذهبت إلى المستر « فيرنس » ناظر الخديوية المجاورة ، ثم إلى ضابط المدرسة « صالح بك » وكان صديقاً لوالدى ، وذهب — حبيب — إلى أستاذ الرياضيات المستر « شوبردج » وكان محبوباً من الطلبة ، وعرضنا عليهم الموضوع ، فذهبوا ثلاثتهم إلى الناظر وأقنعوه بخطأ « هاردى » لتدخله فى السياسة وجرحه لشعور الطلاب . فعدنا إلى المدرسة بعد يومين ولكن « هاردى » ظل على عناده وامتنع عن التدريس أسبوعين .

وفى أوائل ١٩١٥ أخطرت السراى المدرسة بالاستعداد لزيارة السلطان لها . واستدعانى الناظر لمكتبه وقابلنى بحنان أبوى لم أعهده فيه من قبل وقال : اسمع يا بنى ، أنت طالب ذكى مجتهد وصغير السن ، ولك مستقبل عظيم ينتظرك إذا انصرفت إلى تحصيل العلم وابتعدت عن طريق السياسة . أنت الآن لا تقدر العواقب . وقد وضعك الإنجليز فى القائمة السوداء فخذ حذرك من الآن وإياك والخروج على النظام يوم زيارة السلطان . يا بنى استمع إلى نصحى . الإنجليز هم السادة ونحن العبيد فلا تعاند من إذا قال فعل . ولا تكرر ما حدث مع المستر « هاردي ». انظر ماذا فعلوا « بصالح بك » . لقدكان ضابطاً كبيراً بالجيش وهو الآن ضابط مدرسة لأنهم غضبوا عليه . فشكرت له عطفه ونصحه وتركته غير مقتنع بما قال ، ولكنى لم أعرف وقتئذ المقصود بالقائمة السوداء التى عانيت منها الأمرين فيما بعد من الإنجليز ومن السراى .

وأخذت المدرسة تعد العدة للزيارة ونحن من جانبنا نعد عدتنا لإفسادها فأعددنا أربطة رقبة سوداء ، وأعـد بعضنا قمصاناً سوداء كذلك . وكبار السن لم يحلقوا ذقونهم ، وفى صباح يوم الزيارة حضر مندوب السراى وسكرتير عام الوزارة

لاستعراض طابور الاستقبال والاطلاع على بقية الترتيبات ، وذهلا عند رؤية الأربطة والقمصان السوداء ولكن ماذا يفعلان وموكب السلطان فى طريقه من سراى عابدين . ودخلت عربة السلطان وحولها الحرس إلى فناء المدرسة حيث وقفت الطوابير ، وهتف الناظر ثلاثاً بحياته فلم يجبه إلا بعض طلبة الدبلوم . واندفع الطالب « قاسم خليل » نحو العربة وهتف « تحيا مصر » ونزل « السلطان » مهرولا والوزير وبقية الركب فى أثره ، ومكثوا قليلا فى حجرة الناظر حتى يدخل الطلبة الفصول ، ثم بدءوا الطواف . ودخل علينا وكان المستر « شوبردج » يلقى درساً بالعربية فى الجبر العالى . وأنصت « السلطان » متعجباً ثم قال لمن حوله : « ما شاء الله . الخواجه يتكلم عربى ، عفارم ، عفارم » . فضج الطلاب بالضحك وقالوا : « عفارم ، عفارم » ، فارتبك « السلطان » وخرج مهرولا . وفى معمل الكيمياء أعدوا « غاز الأيدروجين المكبرت » الكريه الرائحة ، فلم يطق « السلطان » صبراً فبارح المدرسة على عجل . حانقاً غاضباً ، ولم يكمل الزيارة — وكان لهذا الحادث وقع الصاعقة على رءوس الوزير والسكرتير العام والناظر . ولم تنتظم الدراسة ذلك اليوم فتركنا المدرسة نحمل الأنباء إلى زملائنا فى الحقوق

ودار العلوم .

وفى صباح اليوم التالى دعيت وبعض الطلاب إلى مكتب السكرتير العام بالوزارة فوجدناه ثائراً ثورة عارمة وانفجر قائلا : (خربتم بيتنا الله يخرب بيتكم. أنتم السبب أنتم الزعماء اللى دبرتم كل شيء ، ولا داعى للإنكار فقد نقل إلينا واحد منكم أخباركم ، والمصيبة أنكم صغار السن وفى السنة الأولى . بكرة لما تكبروا رح تبقوا على كده مجرمين سفاحين وفوضويين . أنتم فاكرين لعب العيال ده يخرج الإنجليز من مصر . عمل إيه « عرابى » و« مصطفى كامل » ، والله عال يا ولاد آخر زمن . انتظروا بكرة نتيجة عملكم الطايش) . وطردنا من غرفته شر طردة دون سؤال أو تحقيق . وبعدئذ عرفنا من الذى وشى بنا ، فقد كان واحداً منا أقسم اليمين معنا ، وكرر نفس الوشاية للإنجليز بعدئذ وهو مدرس فى مدرسة ثانوية كبيرة وظل جاسوساً لوكيل الوزارة ، وغيّر لونه السياسى بتغير الظروف حتى وصل إلى أعلى المناصب . وبعد قليل صدر أمر مجلس الوزراء بفصل بعض الطلبة مدداً تتراوح بين أسبوع وشهر وسنة . وكانت أفدح العقوبة من نصيبنا نحن الاثنين « محمد حبيب أحمد » و« أنا » ــ الفصل النهائى والحرمان من التعليم العالى

وظائف الحكومة لمدة خمس سنوات تنتهى فى أكتوبر ١٩٢٠ .

وبعد أيام قلائل زار « السلطان » مدرسة الحقوق فحدث نفس الشيء ووقعت العقوبات الصارمة على بعض الطلاب وامتنع السلطان عن بقية الزيارات .

وحاولت السفر للخارج لإتمام التعليم العالى حتى ولو فى الجامعة الأمريكية ببيروت فلم تسمح الحكومة ، وكانت بريطانيا هى التى تتولى الشئون الخارجية لمصر وقتئذ . وبمساعى بعض أصدقاء والدى الأتراك قبلتنى كلية الطب بالآستانة وقدمت طلب السفر للقنصل البريطانى فرفضه ساخراً وقال : لا نريد أن ننفيك ونعزلك « كعباس الثانى » . وقدمت طلباً آخر للسفر لإنجلترا فرفضه كذلك وقال : تريد أن تنقل الثورة من مصر إلى إنجلترا على حسابنا . وحرت فى الأمر ، كيف عرف القنصل هذا ، وأخيراً علمت أنها القائمة السوداء . بل إنى قدمت طلباً لمدرسة الحقوق الفرنسية فرفض لأسباب متنحلة . وعندئذ أيقنت أن القائمة السوداء تلاحقنى كظلى أينما سرت حتى سنة ١٩٢٠ .

وأحسست أنى تحت مراقبة البوليس ، فالمخبر يلاحقنى والبيت يفتش من آن لآخر مما سبب لى وللأسرة ضيقاً وعنتاً

شديداً . وامتد الأمر إلى والدى فنقل إلى الإسكندرية وبقينا نحن بالقاهرة . وقد عرف زملائى هذه القصة ، وعدوها بطولة وطنية وظلماً صارخاً من جانب الحكومة ، ولكنهم فى نفس الوقت تحاشوا مقابلتى والاجتماع بى . وهكذا عشت عامين فى قلق مستمر وضقت ذرعاً بالفراغ . وتذكرت أن « سعد زغلول » عندما كان وزيراً للمعارف زار مدرسة بنى سويف الابتدائية وسألنى فى الفصل بعض الأسئلة ويبدو أنه سر من إجابتى فقال للشيخ « حمزة فتح الله » كبير مفتشى اللغة العربية المرافق له : « ولد ذكى شاطر وأتنبأ له بمستقبل زاهر » . فهل هذا هو المستقبل الزاهر وأنا الآن شاب عاطل خامل لا حاضر له ولا مستقبل . وزملائى الذين لم يسهموا فى الحركة الوطنية فى طريقهم إلى الدبلوم العالى . وقد وصل بعضهم إلى منصب الوزارة . ولو كنت سلبياً أو عاقلا مثلهم لجاريتهم إن لم أكن أسبقهم .

وضاقت الدنيا فى وجهى وما أقسى البطالة والضياع على شاب ذكى متعطش للعلم ممتلئ نشاطاً وحيوية . لم يجرب الفشل من قبل . وفكرت فى الانتحار وفعلا ألقيت بنفسى فى النيل . فأنقذونى وأسعفونى وعادت إلى الحياة ، وعادت معها

ثقتى بالله ، وبنفسى . وأدركت أن الحياة نعمة لا يكفر بها المؤمن مهما بلغت من السوء . وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، ولعل بعد العسر يسراً . والأمل فى وجه الله كبير .

وفكرت فى قبول أى عمل حر ، ورحب أحد المحامين بتعيينى كاتباً له ولكن والدى رفض رفضاً باتاً ، وأنبنى تأنيباً شديداً على تسرعى ، وفرض لى مصروفاً كافياً يعدل مرتب الوظيفة . فأخذت أختلف إلى قهوة « جراسيمو » التى كانت منتدى رجال التعليم لألعب الشطرنج وأقضى الوقت الباقى بدار الكتب . وطلبنى بعض أصدقاء والدى لإعطاء أولادهم دروساً خصوصية بمكافأة ، فكنت أرفضها لأن ما معى يكفى .

سنة ١٩١٧

وفى أغسطس ١٩١٧ حدث أن حضر إلى القاهرة الأستاذ « كامل سعيد » ناظر مدرسة الأقباط الثانوية بأسوان يطلب مدرساً للرياضيات والعلوم . وكانت قهوة « جراسيمو » بورصة للمعلمين ، فقدمونى له ، وارتاح الرجل لى ، ورحبت أنا من جانبى بفرصة الابتعاد عن القاهرة إلى أقصى الصعيد لعل فى ذلك مخرجاً من عنت المراقبة والتفتيش وهروباً من القائمة السوداء ، وتم الاتفاق وأمضيت العقد لمدة سنتين ، وأعددت نفسى للسفر وأرسلت للوالد بالإسكندرية برقية مختصرة : « مسافر لأسوان بوظيفة مدرس ثانوى » . وجاءنى الرد « كن رجلا » .

ولم أكن أقدر أن القائمة السوداء ستلاحقنى أينما ذهبت ، وحسبت أننى سأجد فى أسوان الجو الهادئ الذى يساعدنى على استكمال دراستى والتقدم لامتحان الليسانس والدبلوم العالى من الخارج عندما ينتهى الأجل المضروب أو قبله إذا ما تغيرت الظروف . ولكن الحوادث كذبت ظنى . فنى العام الدراسى

الأول حرصت كل الحرص على أن لا أطرق باب السياسة مع أى إنسان ، وانقطعت كلية للتدريس والنشاط الرياضى والثقافى الذى لم تعهده المدرسة من قبل . وكان لهذا أثر كبير فى تقويم الطلاب وحسن استغلال وقت الفراغ وما أطوله فى بلد هادئ كأسوان ، مما أكسبنى رضا الطلاب وحبهم وتقديرا أولياء أمورهم ووثق صلتى الطيبة بهم .

ولكنى كنت فى واد والحكومة فى واد آخر . فبعد شهر واحد من استقرارى بفندق « ماجستيك » الذى نزلت به مؤقتاً ، جاءنى « مصطفى » ماسح الأحذية وأخبرنى همساً أنه سمع بعض ضباط البوليس يتحدثون عنى ويذكرون اسمى ، وكنت قد تعرفت ببعضهم معرفة سطحية ، وكان من بينهم رجل اطمأنت نفسى إليه من مسلكه العام ، فهو وقور واسع الثقافة درس فى فرنسا ، ويبدو من حديثه وسلوكه أنه من أسرة أرستقراطية . وعلمت من زملائه أن « مختار بك » هذا كان موظفاً كبيراً بوزارة الخارجية ثم غضب عليه رؤساؤه الإنجليز لصراحته ووطنيته فعاقبوه بالنفى إلى أسوان بوظيفة معاون إدارة . ويبدو أنه كان مثلى فى القائمة السوداء ، ولذلك كان يعتزل الناس ويكتفى بتبادل التحية ، ويجلس منفرداً فى مطعم « أندريا » المقابل

لمركز البوليس ، يقرأ ويكتب ويصب همه فى النبيذ الفرنساوى الذى يذكره بباريس . ويقضى معظم الوقت دون عمل ورؤساؤه المحليون يغضون الطرف عنه .

وفى ذات مساء كنا نتناول طعام العشاء فى المطعم على مائدتين متجاورتين . وفجأة سمعته يهمس دون أن يلتفت نحوى : اسمع يا أستاذ مظهر . ولكن استمر فى الأكل ولا تنظر إلىّ . أنت فى القائمة السوداء . وقد وصلت تعليمات من مفتش الداخلية « ماكنوتن » بمراقبة البوليس لك وتقديم تقارير سرية عن حركاتك وسكناتك للمدير والمفتش « خد بالك » ، المدير شرابة خرج لا يهمه غير مصلحته وإرضاء مفتش الداخلية ، ووكيل المديرية رجل طيب صالح ولكنه فى حاله « ودن من طين وودن من عجين » والحكمدار رجل صادق الوطنية وجرىء . والمأمور أديب فيلسوف سارح فى ملكوت الله ، والملاحظ « زين العابدين » شاب نظيف جميل الخلقة والخلق ووطنى جداً . أما الضابط الآخر « ك » فهو ثعبان سام مكير لا تأمن له . وهو المكلف بمراقبتك . أما بقية الأعيان والتجار فأنت تعرفهم وهم يحبونك .

وفى تلك اللحظة دخل « ك » متلصصاً ، فأخذ « مختار بك »

يترنم بشعر فرنسي كما لو كان ثملا . وقال بالفرنسية : خذ حذرك ولا تقل شيئاً ولا تلتفت نحوى ، فاقترب « ك » نحوه ونظر إلينا وقال : « مختار » ماذا كنت تقول له ؟ فأجابه : يا غبي أنا كنت أنشد قصيدة « لامارتين » فى وصف الطبيعة ، وأنت جاهل لا تعرف « لامارتين » . وجازت عليه الحيلة وقال ضاحكاً ساخراً : أنت لا تنسى باريس أبداً . يالك من رجل كسول مهذار .

وكان « أوين باشا » هو ضابط الاتصال بين السلطة البريطانية والحكومة المحلية ، وفى نفس الوقت الحاكم العسكري الفعلى لمديريتى قنا وأسوان ومقره الأقصر ، وهو يشرف على تجنيد العمال وجمع المؤن والدواب وتأمين المواصلات بين مصر والسودان وكل ما يتعلق بالمطالب الحربية . أما المدير « م . ى. ر . بك » فهو كما قال الشاعر القديم : « أسد علىّ وفى الحروب نعامة » جميل الصورة مهيب الطلعة ضخم الجسم كبير الشوارب ولكنه جبان رعديد ومكير كالثعلب فى جلد الأسد ، لعب دور المنافق وحنث فى يمين مقدسة وتفانى فى إرضاء الإنجليز ، فكان الثمن فيما بعد رتبة الباشوية ووكالة وزارة الداخلية ، ولكن يبدو أنه تاب بعد التقاعد وانضم للهيئة

الوفدية بعد أن كان من ألد أعداء الوفد . أما الحكمدار « عبده عباسى بك » ووكيل المديرية « حسين كامل نصحى بك » والمأمور « محمد عزيز دياب » فكانوا كما وصفهم لى «مختار بك»، والملاحظ « زين العابدين » توفى فى ريعان شبابه ، والضابط « ك » رقى فيما بعد مأموراً لأحد أقسام بوليس القاهرة ثم مفتشاً للداخلية لأنه اشتط فى تشتيت المظاهرات والقبض على الطلبة والعمال . وكنت أحسبه فى أول الأمر مجرد فضولى مهذار ، ولكن بعد أن أطلعنى « مختار » على أمره تذكرت أنه كثيراً ما كان يظهر فجأة دون أن أشعر به كلما انفردت بنفسى أقرأ أو أكتب أو أجتمع ببعض معارفى فى شرفة الفندق أو مطعم « أندريا » أو قهوة « صاوا » ، ويمد يده إلى الكتاب أو الأوراق دون استئذان ، ويقول مداعباً : «لا رواية حب ولا كتاب سياسة . حرام عليك يا شيخ . أنت راهب وفيلسوف . عالم . علم . وسايب الدنيا ملخبطة تضرب تقلب فى مصر . يا شيخ ساعة لقلبك وساعة لربك » . ولكنه كان ماكراً وخبيثاً لا يفاتحنى فى السياسة مباشرة ونحن على انفراد ، أما مع الجماعة فكان يثير مسائل سياسية شائكة ويطلب رأيى فأراوغ فى الإجابة .

وقد تعرفت بعد فترة وجيزة بعدد من الأعيان والتجار والموظفين الصادقى الوطنية ، وكان لهم دور هام فى ثورة أسوان سنة ١٩١٩ ، أذكر منهم بالخير « حنفى منصور بك » و « النجار بك — عمدة الجزيِّرة » تصغير جزيرة ، وعمدة جزيرة أسوان وولده « الشيخ عبد القادر » و « الشيخ هنيدى » ، ومن التجار « الشامى بك » و « الشيخ مصطفى قديس » الذى كان يعرف الإنجليزية وله صلات تجارية بالسودان والحبشة : و « الشيخ أبو بكر كحالة » وأخوه الشاب الفدائى « طه » ، ومن الموظفين : « الأستاذ أحمد عاصم بك — مدير عام دار الكتب بعدئذ » والضابط المهندس « أحمد شوكت » مدير الأملاك والدكتور « نسيم داود حكيمباشى المستشفى الأميرى » والمهندس « لبيب نسيم » صاحب امتياز مناجم ومصانع البويات والأصباغ و « توفيق رشدى » ناظر مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية و « عبد الحميد » ناظر المحطة و « عبد الرحمن أفندى » مراقب بريد الجزيرة و « الشيخ ماهر » ناظر المدرسة الأولية والمهندسان بخزان أسوان : « أحمد حسنين » و « محمد عبد الله » . و « جبالى بك عبد النبى الجبالى » من مشايخ عربان الفيوم وكان يستشفى كل شتاء بأسوان من مرض صدرى ، وماسح

الأحذية «مصطفى» والأسطى« عبد الحميد » الحلاق. والوطنيان الصادقان اللذان كانا يزودانى أولا فأولا بما يسمعانه من أخبار ومعلومات ، ومن الأجانب مدير البنك الأهلى وكان يونانياً وابنه طالب عندي بالمدرسة الثانوية وكنت أوليه رعاية خاصة لأدبه وتفوقه و « سوفوكليس » البقال الكبير بالقيسرية . وتعرفت بثلاثة ضباط جيش من أورطة حرس الخزان ملتهبين بالوطنية « محمد على سعد — اللواء الذى اغتيل فى شارع ٢٦ يوليو » و « بدر الدين — ابن بدر الدين بك » مدير الأمن العام الطاغية المسلط على رقاب العباد وثالث لا أذكر اسمه .

واستأجرت مع زميلى « حسنين فهمى » مدرس اللغة الإنجليزية (المشرف الرياضى بجامعة فؤاد الأول) مسكناً مفروشاً . فكنا بالضرورة نقضى معظم الوقت معاً مع اختلاف الميول والمشارب . فكان يتمسك بالتقاليد الإنجليزية . كلاماً ومأكلا ومشرباً وحركة وإشارة ، لأنه تعلم وقتاً بجامعة « كمبردج » وكان لا حديث له إلا مدينة « كمبردج » وجامعاتها وكلياتها ومعالمها وذكرياته عنها ، ولا متعة له إلا ألبوم صورها يتفحصه كل يوم ويشرح لى كل صورة ، حتى أصبحت أعرف كل شيء عنها كأنى عشت فيها ودرست معه ، وحفظتها عن ظهر

قلب ، وقد أفادتنى هذه المعلومات أكبر وأجل فائدة فى المناسبات والمواقف الحرجة الخطيرة فيما بعد .

فى أواخر العام الدراسى استقال « حسنين فهمى » واحتاجت المدرسة إلى مدرس لغة إنجليزية آداب . فرشحت زميلى فى الجهاد والعقاب « محمد حبيب أحمد » ووافقت المدرسة وتم تعيينه وعدنا معاً إلى أسوان فى سبتمبر ١٩١٨ بعد انتهاء العطلة الصيفية .

سنة ١٩١٨

كان « الهر فريتز فورل » ملك اللحوم المقددة فى ألمانيا يملك ڤيلاً فخمة على النيل بمحطة الجزيرّة (تصغير جزيرة) التى تقع شمال أسوان وتبعد عنها بحوالى عشرين دقيقة سيراً على القدم. لأمر ما سماها « ڤيلا منيرة » . وكانت مؤثثة بأفخر الأثاث كاملة التجهيزات وجميع وسائل الحياة الأرستقراطية المترفة ، وفى الحق كانت أفخم من أى فندق بأسوان . وبها حديقة أزهار وخضر مساحتها أربعة أفدنة وطاحونة هواء هولندية تمدها بالكهرباء والماء ، وحارس وبستانى وحمار وقارب على النيل ، وكل ما فيها يحمل الحرفين « ف. ف » وكان هذا المليونير العجوز يزور كل شتاء أسوان للاستشفاء من الروماتيزم كما يقال ، ومعه آنسة جميلة رشيقة ربما كانت ابنته أو سكرتيرته أو رفيقته ، وطبيب وطباخ وخادمان ، كلهم ألمان . وقيل إنه كان غريب الأطوار ، فكان هو وركبه يضربون فى الصحراء بين حين وآخر ويقيمون الخيام ومعهم آلات وأجهزة عجيبة ، ويقيمون عدة أيام ويعودون كأشباح الليل ، ولا يعلم عنه أهل

أسوان شيئاً لأنه كان لا يختلط بأحد ولا بجيرانه الأقربين «أسرة النجار»، وكان أحياناً يرسل لألمانيا رسائل فى مظاريف كبيرة وطروداً صغيرة كلها مختومة بالشمع الأحمر وموصى عليها .

وفى ذات يوم قبيل إعلان الحرب العالمية بأيام حلقت فوق القيلاّ طائرة ترفع العلم الألمانى وألقت شيئاً ما فى الحديقة فالتقطه الخادم وأسرع به إلى سيده . وكانوا يتناولون طعام الغداء وقتئذ ، فبادروا بترك المائدة كما هى بما عليها من مأكل ومشرب وحملوا حقائب معدة من قبل وأغلقوا أبواب القيلاّ ونوافذها وحملوا المفاتيح معهم ورحلوا دون أى تعليمات للحارس والبستانى ، ولعل الطائرة كانت بانتظارهم فى مكان ما . والمهم أنهم كانوا فى عجلة من أمرهم فتركوا كل شىء فى القيلاّ على ما هو عليه حتى ثيابهم والطعام والشراب على المائدة .

واستولت السلطة العسكرية البريطانية على القيلاّ وما فيها باعتبارها من أملاك رعايا الأعداء . وعينوا صديقى اليونانى مدير البنك الأهلى حارساً قضائياً عليها ، وظلت القيلاّ مغلقة أربع سنوات فى ترك وإهمال . وعلم هذا الصديق برغبتى فى إحضار والدتى لقضاء فصل الشتاء بأسوان لولا صعوبة إيجاد المسكن

المناسب . فكتب للحراسة العامة أن أثاث الڤيلاّ الغالى ومحتوياتها الثمينة كادت تتلف بالترك والإهمال طوال هذه السنين ، وأنه يوصى بإيجارها لاثنين من المدرسين المهذبين الراقين المتعلمين فى إنجلترا وهما خير من يصونها . ووافقت الحراسة على ذلك بإيجار اسمى قدره ثلاثة جنيهات شهرياً . وكانت هذه أجل خدمة قدمها لى نظير رعايتى لابنه فى المدرسة .

وطلبنا إلى مكتبه وسلمنا المفتاح وأمضينا العقد وقائمة المنقولات الثابتة وكان كريماً فتنازل لنا عن الأشياء غير الثابتة كالمفارش والبياضات وأدوات المائدة وآلة كتابة ومحتويات الكرار ، وتعهد بدفع مرتبات الحارس والبستانى من حساب الحراسة ، وتسلمنا الڤيلاّ ودخلناها بعد أن قضى الحارس والبستانى واثنين من فراشى المدرسة يومين فى تنظيفها وغسلها ، فوجدنا أثاثها ومفروشاتها فى غاية الفخامة . ووجدنا بالقبو والكرار مخزوناً هائلا من صناديق النبيذ الألمانى المشهور « فلاهوف » ومياه سلتزر المعدنية . إلى جانب عدد كبير من المعلبات واللحوم المقددة والمحفوظة . مما يساوى مبلغاً ضخماً ، وأهدينا مدير البنك كمية كبيرة منها ، ولم يكن يعلم بوجودها فقبلها شاكراً .

واستطعنا بفضل مخلفات « ف . ف » أن نستضيف أصدقاءنا أيام الجمع والأجانب أيام الآحاد ، وكنا نعد الموائد وأدواتها الفاخرة فى داخل الڤيلا أو فى الحديقة ، ونقدم الطعام والمشروبات ، وهم يظنون أنها من عندنا ، وكان الأجانب يحضرون يوم الأحد مع أسرهم ويقضون اليوم فى الغناء والرقص وصيد السمك والنزهة النيلية بالقارب ، وكنا ندعو الوطنيين لجلسات خاصة بعيداً عن أعين الرقباء وآذانهم . وكان لطلابنا نصيب كبير من هذه الضيافة ، فكانوا يفدون جماعة جماعة فى كل أسبوع فنرتب لهم مسابقات بجوائز ، وكان لهذه الدعوات أطيب الأثر فى نفوس الجميع . وكان الضابط « ك » يفاجئنا أحياناً بدون دعوة ونراه من باب الحديقة الكبير البعيد عن الڤيلا فنحتاط .

وفى يوم أحد فاجأنا المدير ومعه الحكمدار بالزيارة والحديقة حافلة بالضيوف الأجانب والموائد معدة لتناول الغداء فرحبنا به وقضى مع الضيوف وقتاً طويلا واستمتع بغنائهم وموسيقاهم ورقصهم ، وشاركهم طعام الغداء ، ثم انصرف وهو يقول : « هذه حقيقة جنة . يا بختكم. يا ريت تبادلونى وأدفع لكم الفرق » ، ثم تردد وضحك ونظر إلى الحكمدار ، وقال : وهى

كذلك أصلح مكان لتدبير المؤامرات . فضحكت بالمثل وقلت : صدقت فإخواننا الأروام يتآمرون علينا كل يوم أحد كما ترى . وضحك الجميع وبدا السرور على وجه الحكمدار من هذا الجواب الدبلوماسى البارع .

وفى ذات يوم تعطلت طاحونة الهواء ، فتسلقها « حبيب » إلى أعلاها ليرى ما حدث لها . والتفت عرضاً إلى سطح الڤيلا فرأى حجرة بيضاء مسحورة لا ترى من الأرض ، فتعجب من أمرها إذ لم يكن بالڤيلا أى مدخل لها أو سلالم تؤدى إليها . فأحضرنا سلماً طويلا وصعدنا إليها فوجدنا باباً صغيراً أبيض اللون بلون الحائط . وعليه قفل متين ، فعالجناه حتى فتحناه ، وكم كانت دهشتنا حين وجدنا بداخلها جهازاً لاسلكياً وكتاب شفرة رمزية « كود » ، واتضح بعد حل الشفرة أن « ف . ف » كان جاسوساً ألمانياً خطيراً يتصل « ببوتسدام » قصر الإمبراطور — غليوم رأساً . وبادرنا بإطلاع مدير البنك على هذا الكشف وسلمناه الجهاز والشفرة فأرسلهما بدوره إلى السلطة العسكرية البريطانية ، فأرسلت لنا كتاب شكر وتقدير كان له أكبر الفائدة فيما بعد .

وحدث حادث عارض كان القدر قد دبره ليدفعنا دفعاً



كان «ف. ف» جاسوساً ألمانيا خطيراً

للخروج من عزلتنا السياسية والقيام بالدور الغريب الخطير فى الثورة المقبلة . ذلك أن المهندس « محمد بدر » الذى اختاره « سعد زغلول » ليكون أول سكرتير عام للوفد المصرى الذى تألف فى أواخر هذه السنة (١٩١٨) ، قبل « مصطفى النحاس» و « مكرم عبيد » و « فؤاد سراج الدين » حضر لأسوان لأعمال تتعلق بامتياز حصل عليه للبحث عن الحديد ، وكان صديقاً لوالدى ، فسأل عنا والتقينا به وأضفناه بالڤيلا بضعة أيام ؛ وسألنا عن تفاصيل قصتنا التى حدثه الوالد بها بإيجاز . فشرحنا له كل ما حدث إلى مجيئنا إلى أسوان. وكان وطنياً ثورياً مثلنا.

وثمة حادث آخر دبره القدر . فى ذات مساء كنا نسمر بفندق «جراند» وكان أحد النزلاء تاجراً سودانياً له مكانته عند الأسوانيين . وقد حضر عدد كبير من الأعيان والتجار لتحيته ، ودخل الصالون متجهاً نحو الجماعة ، ثم نظر إلينا عرضاً وأخذ يدقق النظر نحو « حبيب » ويتفرس فيه ، واتجه نحونا والجميع يتبعونه ، وإذا به ينحنى وينكب على يد « حبيب» ويقبلها مراراً ويقول : سيدى — تمزية : (لقب أسرة حبيب) ، أهلا بسيدى وابن سيدى « أحمد » متى شرفت أسوان ولماذا لم تخبرنا بذلك ؛ لعلك ستزورنا بالسودان ؟ ورأى

الدهشة على وجوه الحاضرين فالتفت إليهم وقال : « إنه سيدى « حبيب بن سيدي أحمد تمزية » نقيب المرغنية فى مديريات بنى سويف والفيوم والمنيا . والمرغنية لها مقام كبير عند الأسوانيين إلى حد التقديس . بحكم صلاتهم وقرابتهم ونسبهم للسودانيين . ثم نظر إلىّ مستفسراً فحييته مبتسماً وقلت : وأنا كذلك لى صلة وثيقة بالسودان والمرغنية . فقد كان جدى « لطيف باشا الكبير » حاكماً عامًّا للسودان قبل الثورة المهدية. فازداد احترام الرجل وقال : إذن أنت الرئيس الحاكم وهو النقيب الصالح . وكان لهذه المصادفة العابرة أثر خطير آخر فيما بعد .

وانتهت الحرب العالمية باستسلام ألمانيا وحدد يوم ١١ نوفمبر لإمضاء شروط الهدنة . ففكرنا طويلا كيف نمنع الاحتفال الذى أمرت السلطة العسكرية البريطانية كافة مديرى الأقاليم بإقامته باسم « يوم النصر » ووصلتنا دعوة خاصة لحضوره بسراي المديرية . أو على الأقل كيف نمنع الأعيان والتجار من حضوره . وتفتقت الحيلة فاستدعيت ماسح الأحذية « مصطفى » وكلفته أن يخطر « حنفى بك منصور » بأنى سأقابله سرًّا بمنزله لأمر هام بعد صلاة العشاء . وجاءتنا رسالة من المدير بضرورة حضور الاحتفال لأن جناب مفتش

الداخلية حضر إلى أسوان ويريد مقابلتنا نحن بالذات ، وكانت مشكلة محيرة . كيف نحضر ونحن سنوصى الأعيان والتجار بعدم الحضور ؟! ولم يكن هناك بد من أن أتصنع المرض ، فأخذت أتوجع وأتأوه من شدة الألم ونقلونى إلى المستشفى الأميرى ، وهناك كاشفت الدكتور « نسيم » بالسر ، فادعى لناظر المدرسة أن مرضى شديد ويستلزم ملازمة الفراش ثلاثة أيام . وصاحبنى الدكتور والناظر إلى الڤيلا فى عربة ووضعونى فى السرير وأعطى الدكتور تعليمات العلاج لحبيب ، وسمح الناظر لحبيب بإجازة ثلاثة أيام كذلك حتى يلازمنى . وانصرفوا بعد أن رأونى نمت . . وبعد الغروب تسللت إلى بيت « حنفى بك » ودخلت من الباب الخلفى فوجدته مع بعض الأعيان والتجار الوطنيين ، فأخذت أبين لهم أن يوم النصر للإنجليز هو يوم الهزيمة لمصر ، لأن ألمانيا لو كانت انتصرت لكنا تخلصنا من الاحتلال . أما وقد هزمت فإن إنجلترا قد خلا لها الجو وسوف تستعبدنا حتماً وتتنكر لوعودها التى قطعتها أثناء الحرب ولم تنفذ منها شيئاً وربما ضمتنا إلى مستعمراتها ، ومن العار أن نحتفل بيوم نصر للإنجليز وهزيمة لمصر ، وعلمت بفشل الاحتفال رغم ما أعد له من استعداد هائل ومرطبات وحلويات

وكلمات من مفتش الداخلية والمدير ، فلم يحضره إلا قلة من كبار موظفى الحكومة . وسأل المفتش عنا فأخبره المدير بغيابنا فأمر بإلقاء القبض علينا ، وتدخل ناظر المدرسة فأخبره بمرضى الشديد وملازمتى للفراش واضطرار « حبيب » للبقاء معى ، وأمّن الدكتور « نسيم » على كلامه وأكد أنه يشرف على علاجى بنفسه ، وجازت عليهم الحيلة ولم يفطن لها أحد .

وطالعنا فى صحف يوم ١٤ نوفمبر التى تصل أسوان يوم ١٥ نوفمبر أن وفداً من « سعد زغلول » وكيل الجمعية التشريعية وعضويها « على شعراوى باشا » و « عبد العزيز فهمى بك » — قابلوا المندوب السامى البريطانى — السير ونجت — يوم ١٣ نوفمبر مطالبين بريطانيا بتنفيذ وعدها باستقلال مصر بعد الحرب ، وقد صبرت وضحت وقدمت أكثر مما تستطيع ، واللورد « اللنبى » نفسه اعترف بأنه لولا الجيش المصرى وفرق العمال المصريين ومعاونات مصر المادية لما استطاع فتح فلسطين وهزيمة الأتراك ، ولكنه رفض الاستماع لهم ورفع مطالبهم لحكومته بحجة أنهم لا يمثلون الشعب ، وهذا منطق عجيب لرجل مسئول يمثل بريطانيا التى تدعى أنها بلد الديمقراطية وأم الحياة النيابية والنظام البرلمانى ، وسلوك شاذ مع أعضاء الجمعية التشريعية

المنتخبين من قبل الشعب .

وكان الرد الطبيعى أن يتألف الوفد المصرى للدفاع عن قضية البلاد . وعلمنا بعدئذ أن الوفد طلب الترخيص للسفر للخارج فى ٢١ نوفمبر فرفض طلبه ، وبدأت الصحف تتجاهل أخبار الوفد بأمر من مستشار الداخلية وإدارة المطبوعات ، ولكن الأخبار كانت تأتينا بالتفصيل عن طريق موظفى السكة الحديد فينقلها لنا ناظر المحطة سراً . وعلمنا منه أن جميع الشخصيات البارزة قد انضمت للوفد . وأن الوفد بدأ يجمع توقيعات المواطنين فى المدن والأقاليم لتأييده وإثبات حقه الشرعى فى التحدث باسم الشعب المصرى .

وفى يوم ٢٥ نوفمبر أخبرنا الضابط «زين العابدين» بأن الأوامر صدرت من مستشار الداخلية للمدير بمنع هذه التوقيعات ومصادرة العرائض والقبض على حامليها . وفى يوم ٣٠ نوفمبر جاء «مصطفى» ماسح الأحذية على عجل وأخبرنا همساً أن ناظر المحطة ينتظرنا بعد الغروب بقهوة «صاوا». وكان منزله خلف المحطة بعيداً عن العمران . ووجدته بانتظارى أمام المقهى على شاطئ النيل فى مكان هادئ مظلم . ومعه آخر قدمه على أنه الأستاذ «زهدى» صراف أول السكة الحديد الذى يصل

أسوان من القاهرة عدة مرات كل شهر لأعمال مصلحية وله عربة صالون خاصة لإقامته . وكان معه حافظة أوراق متخمة . وبعد التعارف والتحية أخبرنى أنه موفد من قبل « محمد بك بدر » سكرتير عام الوفد المصرى ومعه خطاب موجه لنا من « سعد باشا » ومجموعة من قوائم التوكيل . وهو ينتظر الرد ليسلمه له يداً بيد بعد أسبوع . وما كاد يمد يده ليفتح المحفظة حتى ظهر « ك » كالشيطان من تحت الأرض وضحك ضحكته المعهودة . وقال : ماذا تدبرون الآن وأنتم فى هذا المكان المظلم المنفرد؟ ووفقنى الله لمخرج من هذه الورطة. فضحكت مجاراة له وقلت : أنت ابن حلال ، لقد جئت فى وقتك فنحن ندبر مؤامرة خطيرة جداً . وإذا كان لديك متسع من الوقت وتستطيع الانتظار عشر دقائق يمكنك أن تشترك معنا بشرط أن تكتم السر . وذهبت إلى داخل القهوة وطلبت تشكيلة من الخبز والمأكولات وزجاجة مشروب وورق اللعب ، وعدت للجماعة وخلفى الجرسون يحمل هذه الأشياء وفتحت اللفافة أمام « ك » كأنى أراجع محتوياتها . وقلت : هيا بنا ننفذ المؤامرة فى بيت « عبد الحميد » هذه هى مؤامرتنا التى ندبرها فى أول كل شهر عندما نقبض المرتب . أكل وشرب « وبارتيتة بوكر » خفيفة

قبل أن تتبخر الفلوس . وكل واحد ثلاثة جنيهات فقط
والشكك ممنوع بتاتاً واللعب للساعة واحدة ولا دقيقة زيادة .
فتثاءب زهدى وقال : إنه متعب ولديه تقرير لا بد من إنجازه
وعشاؤه المطهى الشهى ينتظره فى صالونه . وإحنا أربعة والبركة
فينا ، واستأذن وانصرف ومعه حافظة الأوراق . فقال « لك » :
« حلال عليكم . وأنا متعب كذلك وليس معى فلوس . سلام
عليكم » واتجه نحو المدينة . وسرنا بدورنا على مهل ودرنا حول
المحطة لنري إذا كان لا يزال يتبعنا أو اتجه للصالون ليراقب
« زهدى » ولما وثقنا أنه انصرف لحال سبيله . دخلنا بيت
ناظر المحطة فوجدنا « زهدى » هناك فسلمنا الأوراق وعاد
مسرعاً لصالونه . ونحن بدورنا أخذنا الأوراق . وتركنا الأشياء
للناظر لينتفع بها لأنها لم تكن إلا خدعة . وعدنا إلى الڤيلا
سيراً على الأقدام بعيداً عن شاطئ النيل . ووجدنا فى الأوراق
خطاباً تاريخياً هاماً . هذا نصه :

سكرتارية الوفد المصرى

١٩١٨/١١/٢٩

« الأستاذان الفاضلان والوطنيان المخلصان

فلان وفلان

تحية طيبة مخلصة وبعد

فقد عرضت على سعادة « سعد زغلول باشا » رئيس الوفد المصرى ما أعرفه من جهادكما الصادق ووطنيتكما المخلصة وتضحيتكما الكبيرة السابقة فى سبيل الوطن ، وأنكما خير من يمثل الوفد المصرى فى إقليم أسوان ويؤتمن على تحقيق رسالته وتنفيذ تعليماته .

ويسرنى غاية السرور أن أبلغكما أن سعادة رئيس الوفد قرر اعتمادكما نائبين عن الوفد المصرى فى أسوان والنوبة ، فعليكما الاتصال بالوطنيين الصادقين من أعيان وتجار وموظفين وإطلاعهم على خطاب الاعتماد هذا والحصول على توقيعاتهم على قوائم التأييد مع اتخاذ الحيطة التامة فى تصرفاتكما بعيداً عن أعين الحكومة ، وإعادة القوائم إلينا على جناح السرعة بالوسيلة التى تضمن وصولها إلينا سالمة . وليكن رسولنا الأمين حلقة الاتصال بيننا .

وإنى إذ أكرر التهنئة لكما نيابة عن الوفد المصرى وسعادة

رئيسه أرجو لكما التوفيق فى مهمتكما . والنصر لقضية الوطن العادلة . والسلام .

السكرتير العام للوفد

محمد بدر »

أما قوائم التأييد المطبوعة فقد جاء فى أعلاها هذه العبارة :

نحن الموقعين على هذا قد أنبنا حضرات « سعد زغلول باشا » و« على شعراوى باشا » و « عبد العزيز فهمى بك » و« محمد على بك » و « عبد اللطيف المكباتى بك » و« محمد محمود باشا » و« لطفى السيد بك » ، أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة ، حيثما وجدوا للسعى سبيلا ، فى استقلال مصر استقلالا تاماً .

ويلى ذلك خانات للاسم والعنوان والإمضاء أو الختم

وفى اليوم التالى أطلعنا أصدقاءنا الوطنيين على الخطاب ، وسلمناهم القوائم تحت مسئوليتهم مع اتخاذ الحيطة والكتمان وحفظ القوائم لديهم فى مكان خفى مأمون . ودفعاً لأى مظنة أو شبهة فى أى مصرى تسلم القوائم فى ظرف أسبوع لمدير فندق « ماجستيك » النمساوى الذى توثقت صلتى به عندما نزلت بفندقه فى أول الأمر . وكان هو وزوجته يكرهان الإنجليز كراهية التحريم ، وهو ليس موضع شبهة وإن كان من رعايا

الأعداء ، لأنه عاش فى أسوان مدة طويلة وتمصر وليس له أى اتجاه سياسى ، واحتاجت السلطة العسكرية البريطانية إليه أثناء الحرب ، لنزول الضباط بفندقه وقد أثنوا على خدماته لهم أطيب الثناء . . . وتوثقت الصلة بعد أن حكيت لهما قصتى . وكان يفرد لنا غرفة خاصة منعزلة نجتمع فيها خفية للتشاور فى الأمور بعيدين عن الرقباء ، وينكر وجودنا لمن يسأل عنا من الغرباء ، وتجلس زوجته فى مواجهة الباب الكبير ، فإذا اشتمت رائحة الخطر قرعت الجرس ثلاث مرات فنتسلل من الباب الخلفى ، وأخطرناه بتسلم القوائم من أصحابها ، ثم يسلمها لطه كحالة .

وكنا قد سلمنا « حنفى بك منصور » قوائم الأعيان ، والشيخ « أبو بكر كحالة » قوائم التجار ، و « المهندس أحمد شوكت» قوائم الموظفين ، والأستاذ « توفيق رشدى » قوائم المدرسين ، والمهندس « أحمد حسنين» قوائم الخزان ، و « النجار بك » قوائم الجزيرة ، و «الشيخ عبد القادر» قوائم جزيرة أسوان ، و « طه كحالة » قوائم البلاد الشمالية حتى إسنا لعائلة « حزين بك » ، وتركنا ضباط الجيش والبوليس لظروفهم الخاصة .

وحدثت فى هذا الأسبوع بعض مصادفات من عجائب تدبير القدر : فقد وصلتنى برقية من القاهرة هذا نصها :

« قابل الأمير بمحطة الشلال بعد غد ومعك أقتين لحم مشوى وعيش فينو — السيد ». ونقلت صورة البرقية إلى مفتش الداخلية دون علمنا . وفى ظهر اليوم الموعود اصطحبنى البوليس إلى مكتب ضابط الاتصال بمحطة الشلال . القائمقام « سيد لبيب بك » فوجدنا عنده ضابطاً إنجليزياً يتكلم العربية وضابطاً مصرياً . وفاجأنى الضابط الإنجليزى بصورة البرقية وفتح محضراً رسمياً وسألنى عن فحواها . فسألته بدورى : بأمر من هذا الاستجواب . فأجاب فى صلف واستنكار : بأمر تلفونى من جناب مفتش الداخلية . فقل لنا من غير لف ولا دوران : من هذا الأمير السودانى ومن يرافقه وما صلتك به وما معنى اللحم المشوى والعيش الفينو ؟ لأنه ليس من المعقول أن يطلب الأمير شيئاً من هذا والقطار به عربة أكل . لا بد أنها شفرة رمزية خاصة ونحن أدرى بهذه الألاعيب . فضحكت وقلت فى هدوء : لا ضرورة للإجابة الآن وسمو الأمير سيصل بعد ساعات فيمكن أن تراه بنفسك وتسأله . فسكت على مضض وانصرف . وانتظرت بمكتب القائمقام الذى أمر بالقهوة والشاى وإعداد طعام الغداء ، ووصل القطار فقمنا إليه نحن الثلاثة . وهناك من أحد نوافذ الدرجة الثانية أطل صديقى « محمد أفندى

الأمير » الموظف بحكومة السودان ومعه زوجته وأولاده ، ولم أكن فى حاجة لتقديمه للقائمقام فقد كانت بينهما معرفة سابقة ، فسلمته اللحم والخبز وسار فى طريقه إلى القاهرة . وضحكنا على قفا الضابط الإنجليزى المتعجرف الذى يعرف هذه الألاعيب . وانصرف الضابط ساخطاً يتميز غيظاً ، ولما ودعت القائمقام همس فى أذنى : على كل حال خذ بالك فأنت مراقب وخطواتك محسوبة عليك . ولست أدرى لماذا .

وواجهتنا المشكلة الخطيرة المعقدة وهى : كيف نتسلم التوكيلات من « طه كحالة » ونسملها « لزهدى » ونحن الاثنان مراقبان مراقبة شديدة ، وخطواتنا محسوبة علينا فعلا ، وجاءت المصادفة الثانية وكانت مصادفة سعيدة حقًّا دبرها القدر الرحيم لنجاح المهمة من أيسر طريق . فقبل موعد التسليم بثلاثة أيام أصبت بخراج كبير فى الزور اقتضى عملية جراحية فى المستشفى الأميرى والبقاء به للعلاج أسبوعاً على الأقل مع الاشتباه فى حالة دفتيريا ، وأخطرت المدرسة بذلك . وكان الدكتور « نسيم » يمر علىّ كل صباح للغيار ويقضى معظم وقت فراغه معى ، و « حبيب » يلازمنى بعدئذ من بعد انتهاء دروس المدرسة إلى الغروب . ثم تتولانى الممرضة إلى منتصف الليل . .

كانت الممرضة راهبة إيطالية سألتنى عن حالى فى الليلة الأولى فأجبتها بالإيطالية وأخبرتها أن أمى إيطالية . فأخذت تسامرنى وتقرأ لى شعراً أو رواية إيطالية إلى أن يدركنى النعاس . وتتركنى ساعة واحدة لتناول العشاء والصلاة . ثم تعود : وتردد الإخوان الوطنيون على المستشفى لزيارتى . وكلفت طه كمحالة أن يسأل ناظر المحطة عن موعد وصول « زهدى » وتم المقابلة بينى وبين « زهدى » قبيل العشاء فى منزل المحطة — وفى نفس الوقت يكون « طه » بانتظارى أمام قهوة — صاوا — لأن « زهدى » لا يعرفه ويضع الأوراق فى سلة صغيرة يغطيها بطبقة من الخضار أو الخيار أو الفواكه أو أى شىء آخر كأنه يحملها إلى منزله .

وكان « لك » يزور المستشفى زيارات مفاجأة متقطعة ويراقب زوارى فى دخولهم وخروجهم ، ويفتش ما يحملونه من فاكهة وجرائد بدافع مجرد الاستطلاع كما يدعى ، وينتظر « حبيب » عصراً ويدخل معه غرفتى ويلازمنا حتى يخرج فيخرج معه ويسير معه قليلا فى طريق الڤيلا فإذا اطمأن لعدم عودته انصرف . وكان يستدرجنى فى الكلام ويقترح أن يصاحبنى فى جولة بالحديقة أو على كورنيش النيل لتغيير الهواء فأظل نائماً فى سريرى أتوجع وأظهر الألم عند كل حركة .

وجعلت الدكتور « نسيم » ينصحنى أمامه بأن فى مبارحة السرير خطراً كبيراً فقد ينفتح الجرح فأحتاج لعملية أخرى ؛ ثم يطلب من الممرضة إعطائى دواء مسكناً أو منوماً .

وحرت فى أمر هذه المراقبة المتواصلة وشممت رائحة الخيانة ، وتوجست شرًّا من « لك » فطلبت من « حبيب » أن يضع خطاب « سعد باشا » والأوراق الأخرى الواردة من « محمد بك بدر » فى صندوق صغير من الصفيح ويدفنه فى أرض حديقة الفيلا بعيداً عن الرجل فى مكان يعرفه . وقد صدق حدسى فى الخيانة فقد علمت فيما بعد أن شخصاً ما وشى بوصول خطاب من « سعد باشا » ومعه قوائم التوكيل ؛ مع أنه حلف اليمين ، وكان هذا الشخص أحد صغار الأعيان وكافأته الحكومة بأن عينته عمدة فى مكان ما ومنحته رتبة البكوية وساعدته تجاريًّا حتى اغتنى.

وفى الليلة المعهودة دخلت الراهبة قبيل الغروب فتصنعت الألم الشديد وطلبت منها منوماً قويًّا ، فأعطتنى ما طلبت وقالت : ستنام فى راحة تامة حتى الصباح . وبعد قليل طلبت كوبة ماء لبلع المنوم ، وتظاهرت أنى بلعته واستغرقت فى النوم . وكان الظلام قد حل فتركتنى وأغلقت الباب ، وما كاد صوت أقدامها يختفى حتى قمت مسرعاً ولبست القميص والبنطلون

والحذاء المطاط ونزلت من النافذة ، وقفزت من السور الخلفى ، وجريت مسرعاً . وطفت بشرقى المدينة بعيداً عن المساكن . ومن فناء المحطة تسلمت السلة من «طه» ، وسلمتها «لزهدى» فى منزل الناظر . فأسرع بها إلى صالونه . وسافر صباح اليوم التالى .

ولاحظت أثناء عودتى لفناء المحطة شبحاً يتلصص بجوار القهوة ويبدو أنه رآنى فاتجه نحوى . فجريت مسرعاً بأقصى ما يمكن ودرت فى الحوارى والأزقة الجانبية متجنباً شارع الكورنيش . وأسوان كما هو معلوم تنام من المغرب ما عدا رواد المقاهى ونزلاء الفنادق على شاطئ النيل . وعدت إلى غرفتى بالمستشفى . ونمت فى فراشى كأن شيئاً لم يحدث . وعادت الممرضة فى موعدها فرأتنى أغط فى نوم عميق .

وكان الدكتور « نسيم » قد قيد اسمى فى سجل المستشفى يوم دخولى وتاريخ العملية الجراحية ونوعها ومدة العلاج وأرسل الشهادة الطبية للمدرسة . وبعد يومين فوجئت بدخول رئيس النيابة « حليم برسوم » ومعه مأمور المركز . والضابط الإنجليزى إياه والضابط «ك» وكاتب النيابة . وأحضروا لهم منضدة جلسوا إليها . فأعدت تمثيل التأوه والتوجع . وبدأ التحقيق وفتح المحضر . وقبل أن أجيب عن الأسئلة سمعت شخصاً يسعل

فى الخارج عرفت من صوته أنه « حبيب » وقد تركوه خارجاً فأدركت أن فى الأمر خدعة . وبدأ رئيس النيابة يقول : وردت إشارة عاجلة من جناب مفتش الداخلية باتهامك أنت وزميلك الأستاذ « حبيب » بأنك أطلعت بعض الأشخاص على خطاب ثورى وارد من القاهرة . وقدمت لهم قوائم لجمع توقيعات بتأييد ما يسمى بالوفد المصرى . مخالفين بذلك أمر وزارة الداخلية . وحصلت فعلا على هذه القوائم مساء أول أمس وسلمتها لشخص آخر ثم اختفيت . قلت : وما الدليل وأين كان ذلك ؟ قال : تقرير البوليس يقول عند قهوة صاوا . والتقرير يقول إن زميلك اعترف ولا داعى للإنكار . . قلت : ومن الذى رآنى ؟ ولماذا لم يقبض علىّ متلبساً ؟ فاندفع « لك » يقول : أنا رأيتك بعينى هذه . وأردت اللحاق بك . ولكنك جريت أسرع منى وهربت . فوجهت الكلام للضابط الإنجليزى . وقلت : إذا كان زميلى قد اعترف فهو وحده المسئول عن اعترافه . وعلى فرض أن هذا حدث فنحن مصريون ولسنا إنجليزاً ولا صنائع إنجليز . فيكون ما فعلنا واجباً وطنياً لا يعاقب عليه القانون . أما عنى أنا فاسألوا الدكتور مدير المستشفى والممرضة الراهبة التى تلازم غرفتى . وجاء الدكتور « نسيم » وبعد أن اطلع على

التقرير قلب نظره فيهم وقال فى تهكم : ما هذا التخريف؟.
الأستاذ « مظهر » دخل المستشفى منذ أربعة أيام كما هو
ثابت فى السجل . وأجريت له عملية جراحية خطيرة تستلزم
ملازمة السرير أسبوعاً على الأقل . وقد أخطرنا المدرسة بذلك
وهو لا يزال يتألم من الجراح . والممرضة تلازمه من قبل الغروب
إلى منتصف الليل وتعطيه الدواء المسكن والمنوم . وهى راهبة
لا تكذب فاسألوها . ومن المستحيل أن يكون قد فعل ما ذكره
التقرير . فقاطعه « ك » بانفعال شديد وقال : ولكنى رأيته
بعينى ولكنه طار منى . فأجابه الدكتور ببرود واحتقار : لو حدث
ما تتوهمه لمات فى منتصف الطريق من الاختناق أو من نزيف
الجرح . يظهر يا حضرة الضابط أنك مصاب بالهلوسة . أو
إدمان المخدرات . ترى وتسمع أشياء وهمية لا وجود لها . وهذا
مرض عصبى خطير يجب أن تبادر بعلاجه قبل أن يصل بك
إلى مستشفى المجانين . وأصر الضابط الإنجليزى على سماع
الراهبة . فاستدعوها من الدير . ولما علمت الموضوع انفعلت
فى غضب زائد وقالت : دى كلام واحد شيطان مجنون وملعون .
فى اليوم دى كان تعبان كتير . وقبل المغرب أخذ منوم
شديد . ونام حتى الصبح . وأنا معاه لحد منتصف الليل .

فالتفت الضابط الإنجليزى إلى « لك » وقال فى حدة وشرر الغضب يتطاير من عينيه : « أنتو مش بوليس . أنتو حمير حشاشين كذابين ما تنفعوش أبداً . بكره راح نشوف » . وابتلع « لك » الإهانة صاغراً وأقفل المحضر بالحفظ وانصرفوا .

وبعدها دخل « حبيب » الغرفة وأخطرنى باستجوابه فى النيابة وإنكاره كل شىء . وأنه لم يبارح الڤيلا بعد الغروب ، وكان معه ضيوف قضوا السهرة هناك . وبعد ظهر اليوم التالى أخبرنى أنه عند دخول الڤيلا أمس وجد أدراج المكاتب مفتوحة والأوراق مبعثرة بدون نظام كأن يداً غريبة عبثت بها . وعلم من الحارس «ركابى» أن البوليس حضر أمس أثناء غيابه وفتش الڤيلا ، ولما لم يجدوا ما يبحثون عنه خرجوا ساخطين ، وكذلك ذهبوا للمدرسة وفتشوا أدراجنا ودفاترنا وأوراقنا . وسألوا الناظر وسكرتير المدرسة والطلاب فأنكروا جميعاً علمهم بأى شىء ، وهم صادقون فنحن تعمدنا أن لا نشرك معنا أحداً منهم زيادة فى الحيطة .

وأسدل الستار على هذه التجربة الخطيرة الموفقة التى مرت بسلام ، ولكنا خرجنا منها بنصر شعبى كبير ، فقد عرف الناس ما حدث . وأن القوائم وصلت مصر بطريقة لا يعرفها أحد ، وأننا لعبنا بمفتش الداخلية والبوليس . وعرف الجميع أننا نائبان

عن زعيم الأمة والوفد المصرى الذى يضم كبار الشخصيات الوطنية . ونحن لا بد أن نكون منهم بالطبع . فكنا نتلقى التحيات الحارة والاحترام الزائد أينما سرنا . وفى نفس الوقت صرنا أبطالا فى نظر الطلبة . وبدأ الناس يتساءلون عنا . من نكون . ولماذا قبلنا العمل بمدرسة حرة بأسوان . وهى تعد منفى الموظفين . وكيف وصلنا إلى هذه المكانة المرموقة عند الوفد فى القاهرة ونحن هنا . لابد أننا مكلفون بمهمة وطنية خطيرة .

فرأينا الفرصة مناسبة لاستغلال هذه السمعة الطيبة لصالح القضية الوطنية . فتخيرنا عشرين من أشد الأعيان والتجار الأسوانيين غيرة ووطنية. ودعونا إلى وجبة غداء بالفيلا . وحضروا فوجدوا الموائد وأدواتها الفضية والصينية والبلورية ومفارشها المزخرفة معدة أتم إعداد . وكلها منسقة فى الحديقة أجمل تنسيق . والفضل طبعاً للجاسوس « ف . ف » وكان الطعام مشوياً من الخرفان التى أهداها « النجار بك » والسمك العظيم من مهندسى الخزان وأصناف البقالة والمعلبات والمشهيات من التجار الأروام . والضيوف لا يعرفون . وبعد الغداء والقهوة والشاى والسجاير قضوا وقتاً طيباً استمعوا فيه أسطوانات « عبد الرحمن أفندى » . وكان منزل قومندان الجهادية المجاور للفيلا قد أرسل

بعض الجنود المدربين على الخدمة .

وجاء دور السياسة . فحدثناهم حديثاً مستفيضاً عن القضية المصرية من ثورة عرابى للآن . ودور الوفد المصرى فى الدفاع عنها وواجب كل مصرى وطنى صميم . وكانت معظم المعلومات جديدة عليهم بالطبع . ثم انصرفوا شاكرين حامدين . وقد ازدادت حيرتهم فى أمرنا . ولكنهم أصبحوا معنا قلباً وقالباً .

وكان قد حدث بعد خروجى من المستشفى أن أخذنا « أنا » و « حبيب » نعطى الطلبة دروساً مسائية مجانية لتعويض ما فاتهم من وقت أثناء غيابنا . وكان لهذا العمل أطيب الأثر فى نفوس الطلاب وأولياء أمورهم . وأصبحنا موضع التقدير والثقة التامة .

وبدأنا فى إيقاظ الوعى وتعبئة القوى الشعبية جهاراً غير آبهين بالحكومة ما دامت لنا صفة النيابة عن الوفد المصرى ، وليكن ما يكون . وقمنا بعدة زيارات للأعيان فى منازلهم والتجار فى متاجرهم وأخذنا نبصرهم بالموقف الدولى وقضية مصر والأحداث الجارية . ونروى ما كان يحدثنا به « زهدى » من أخبار أكثر تفصيلا من أخبار الصحف . مما أقنع الناس بأن لنا وسائل خاصة جبارة للاطلاع على ما جريات الأمور . ووقانا الله شر « ك » فقد نقل إلى جهة أخرى .

ووصلت الأخبار بطبيعة الحال إلى المدير فأراد أن يصانعنا فدعانا إلى تناول الشاى فى سرايه مع نفر قليل من الأعيان وكبار الموظفين ؛ فأدرنا دفة الحديث ؛ وطرقنا شتى الموضوعات السياسية والاجتماعية . وعرجنا على قضية مصر ومهمة الوفد وشخصياته ؛ كل هذا والمدير ينصت ولا يبدى رأياً . وزاد هذا فى مكانتنا الشعبية لأن الناس عادة تعد دعوة المدير أكبر شرف يناله المواطن .

وفى أواخر ديسمبر قبل عطلة نصف السنة الدراسية أقمنا حفلا مدرسياً رياضياً لأول مرة فى تاريخ المدرسة . بل فى مدينة أسوان . حضره المدير وكبار الموظفين والأعيان والتجار وأولياء الأمور . وبرز الطلبة فى الألعاب الرياضية والمباريات التى دربتهم عليها بنفسى وشاركتهم فيهما . وقد كنت وأنا فى سنهم من أبطال الجمباز بالمدرسة الخديوية كما ذكرت . ووزع المدير الجوائز على الفائزين . وخرج الطلاب فى عرض رياضى بملابسهم الرياضية وجوائزهم وأعلامهم يطوفون المدينة فى شبه مظاهرة . وكان هذا يوم عيد لم تشهد المدينة لهمثيلا من قبل . وظل حديثاً للناس مدة طويلة . واستمرت الحال هادئة ساكنة إلى أن حضر « زهدى » فى يوم ١٥ يناير ١٩١٩ ؛ فظهرت الشرارة الأولى واندلع البركان .

سنة ١٩١٩

يوم ١٥ يناير ١٩١٩ سلمنا « زهدى » عدة نسخ من الخطب السياسية التى ألقاها « سعد زغلول » فى منزل « حمد الباسل » فى يوم ١٣ يناير ، ولم تشر إليها الصحف ، فوزعناها على الأصدقاء . وأكد لنا أن نذر السحب قد بدأت تتجمع فى سماء القاهرة . وسوف تؤدى إلى انفجار مروع . . فبادرت وأحضرت والدتى وشقيقتى وأخى الصغير « مصطفى » لقضاء فصل الشتاء بأسوان بعيداً عن جو القاهرة ، ورأيت أن تنزل بمحطة أسوان بدلا من محطة الجزيرة القريبة من الڤيلا لترى المدينة . وعند وصول القطار دهش الواقفون على رصيف المحطة عندما رأوا سيدة بيضاء اللون ذهبية الشعر سافرة الوجه أوربية الملابس ومعها فتاة وصبي يشبهانها . وظنوها سائحة إفرنجية . ولما رأونى أستقبلها وأقبل يدها وأقبل الصغيرين عرفوا أنها أمى فحيوها مبتسمين بإحناء الرأس وردت التحية بأحسن منها . وسارت بنا عربة الحنطور المكشوفة تخترق شارع النيل على مهل إلى الڤيلا . وعلى مرأى ومسمع من الناس . وانتشر الخبر ،

وتهيبت سيدات أسوان الوطنيات من زيارتها أول الأمر .وجاء أصدقاؤنا الأروام ومعهم زوجاتهم للتحية والتعارف . فقابلتهم أمى وأكرمت وفادتهم وحادثتهم بالإيطالية والفرنسية . وحرصت على أن تطرى جمال الزوجات أمام أزواجهن . ودعتهم لقضاء يوم الأحد المقبل فى ضيافتها . فأحبوها وأعجبوا بها وبالصغيرين كل الإعجاب . وخاصة وهى مصرية . وراحوا يحدثون الناس عنها . وبعد قليل زارتنا أسرة « النجار بك » المجاورة . ثم توالت زيارة سيدات أسوان . وكانت إذا نزلت أسوان وهى سافرة فى العربة المكشوفة لرد الزيارات أو للنزهة وقف الناس على طول الطريق يحيونها فى احترام . وترد عليهم التحية فى ابتسام ووقار .

ودعانا المدير مرة أخرى لتناول الشاى وصعدت والدتى وأختى للطابق العلوى وبعد زيارة الحريم نزلت إلى مجلس الرجال وحيت وجلست وأخذت تشاركنا الحديث فى شتى الموضوعات . وتدلى ببعض العبارات الإيطالية والفرنسية إلى جانب العربية . فبهرت المدير والحاضرين ودعت المدير وأسرته للڤيلا رداً للزيارة . وتناقل الناس حديث هذه الزيارة على عادتهم . وبالغوا فيها .

وقد يجول فى خاطر القارئ الكريم أن الكثير من الأحداث

التى سردتها الآن لا صلة له بموضوع الكتاب. أو مع الكثير من التساهل والتسامح تعدّ حواشى هامشية لسيرة شخص وليس تأريخاً لثورة . ولكنه سيتبين فيما بعد أنها حلقات متصلة لا تكتمل السلسلة التاريخية بدونها . وأنها مقدمات كان لها أثر بالغ فى توجيه مجرى الأمور . وراوفد تصب فى نهر الثورة الجارف فتزيده عنفاً واندفاعاً .

وفى ٢٥ يناير وصل إلينا نبأ استقالة وزارة « حسين رشدى باشا » تضامناً مع الوفد . وأن « السلطان » أرجأ النظر فى هذه الاستقالة ثم قبلها بعد تردد طويل فى أول مارس . وعلمنا من « زهدى » أن الأمور تحرجت بين الوفد والسلطة العسكرية البريطانية . وأن القائد العام للقوات البريطانية « الجنرال ولسن » استدعى « سعد باشا » وأعضاء الوفد يوم ٦ مارس فى مقر القيادة وتلا عليهم وهم وقوف بياناً باللغة الإنجليزية وإنذاراً ولم يستمع لردهم وأمرهم بالانصراف . وفى ٨ مارس اعتقل « سعد باشا » و« محمد محمود » و« حمد الباسل » ونفوا إلى جزيرة « مالطة » .

وحضر « زهدى » لأسوان يوم ١١ مارس وأخبرنا أن مظاهرات ضخمة اجتاحت القاهرة يوم ٩ مارس احتجاجاً

على اعتقال « سعد » ونفيه . وأن الإضراب العام قد أعلن ؛ ووقعت مصادمات عنيفة دامية مع الجنود البريطانيين المسلحين سقط فيها عدد كبير من الضحايا والشهداء : رجالا ونساء وأطفالا . وأن مظاهرات أخرى بدأت فى المنيا وأسيوط يوم ١٠ مارس . والبلاد كلها تستعد لثورة عارمة شاملة عما قريب . وأن الوفد يأمرنا بإعداد العدة من الآن لمظاهرة شعبية كبرى وإسقاط الحكومة المحلية إذا لزم الأمر وإقامة حكومة وطنية شعارها « الهلال والصليب » من الشخصيات البارزة الوطنية الجريئة . وكان هذا إجراء خطيراً وخاصة بعد أن أخبرنا ناظر المحطة فى اليوم التالى أن السكة الحديد وجميع المواصلات ووسائل النقل قد تعطلت تماماً بين القاهرة وقنا .

وقر الرأى بعد المناقشة واستطلاع رأى الأعيان والتجار والموظفين الوطنيين على تنفيذ أمر الوفد . وأن تقوم المظاهرة يوم ١٥ مارس . وفوراً تبرع التجار بالقماش والأخشاب والبويات والحبال وكل ما يلزم لعمل الأعلام واللافتات . وتطوعت مدرسات الجمعيات الخيرية بعمل الأعلام ومدرسة الصنايع بالخط . وطلبنا أن يكون على الأعلام رمز « الهلال والصليب » وعلى اللافتات عبارات : تحيا الحرية . يحيا

الاستقلال ، يحيا الوفد . تحيا مصر حرة مستقلة ، يسقط الاحتلال . وأعددنا قادة المظاهرة والمشرفين والخطباء والهتافة . ورسمنا خط سير المظاهرة . وحددنا توقيتها وكل ما يلزم لنجاحها .

فتبدأ التجمعات فى الساعة التاسعة صباحاً أمام مدرسة الصنايع فى أقصى شمال المدينة . وتتمبل الجموع من طرق متفرقة . وتخترق المظاهرة المدينة من شمالها إلى جنوبها عن طريق شارع النيل . مارة بدير الراهبات . والمستشفى الأميرى ، والمدرسة الأميرية الابتدائية . والبنك الأهلى ، وسراى المدير ، ثم مركز البوليس . وسراى المديرية . والمحكمة ، وفندق « جراند » ومحطة السكة الحديد . ثم تعود من داخل المدينة عبر السوق « القيسارية » . وتنتهى كما بدأت عند مدرسة الصنايع . أما فندق « كتراكت » فكان بعيداً عن خط سيرها . وقد تحاشيناه لوجود عدد من الضباط الإنجليز وأسرهم به .

وحددنا مواقف الخطابة والخطباء حيث تقف المظاهرة فى بعض الأماكن الهامة لبضع دقائق تلقى فيها الخطب على الجماهير : « توفيق رشدى » أمام مدرسة الصنايع ، و« الشيخ إبراهيم »

مدرس اللغة العربية بمدرستنا أمام المدرسة الأميرية: و« أنا » أمام سراى المديرية : و« حبيب » أمام المحكمة وفندق جراند. و« طه كحالة » بالسوق . وأخطرنا نظار المدارس والناظرات بالخطة لإعداد التلاميذ والطلاب واصطحابهم إلى الأماكن المعدة لهم . واخترنا عدة أشخاص ليكونوا ضباط اتصال . وأرسلنا رسلا يطمئنون دير الراهبات والبنك والفنادق على حسن سير المظاهرة . وعدم الخوف من أى إخلال بالنظام . وأن تظل المقاهى والمتاجر والفنادق مفتوحة كالمعتاد . وقد استجاب جميع الناس من وطنيين وأجانب بروح طيبة عالية لأن الوعى القومى قد تيقظ وأيقن الشعب أنها معركة ضد الاحتلال والاستعمار وتملكتهم جميعاً روح الجهاد والتضحية .

وبدأ الاستعداد ليوم المظاهرة التاريخى المشهود على ساق وقدم : واضطرتنى الظروف لترك المدرسة بعد الحصة الأولى لمراقبة العمل بمدرسة الصنايع ومدرسة البنات . وكنت قد شرحت للطلبة خط سير المظاهرة وواجبهم فيها ورسمت خريطة حددت فيها أماكن الوقوف بعلامات وتركتها دون أن أمحوها . وحضر الناظر للفصل بعدى وسأل الطلاب عنها فأجابوا بأنها تمرين على قياس المسافات والأطوال . وتكتموا الخبر عنه . وعدت ظهراً فدعيت

لمكتب الناظر . وهناك وجدت أعضاء مجلس الإدارة للجمعية القبطية التى تملك المدرسة . وهم « منقريوس بك » رئيس الجمعية والأستاذ « رزق سليمان » المحامى والمهندس « لبيب نسيم » والدكتور « نسيم داود » وناظر المدرسة و « نجيب أفندى » سكرتير المجلس و « قسيس » الكنيسة وشخص آخر لا أعرفه . وبدأ المحامى استجوابى بقوله : لقد وصلت إلى علم المجلس أخبار متواترة عن أمور غريبة ومريبة تقوم بها أنت وزميلك الأستاذ « حبيب ». وقد كلفنى مجلس الإدارة استجوابك عنها . أنت تعلم مبدئياً أن هذه مدرسة حرة تعتمد على إعانة الوزارة وتبرعات الأهلين التى تقبض منها مرتبك . والوزارة تحظر على المدارس وموظفيها الاشتغال بالسياسة . وأنت على نشاط سياسى ملحوظ يضر بسمعة المدرسة لدى الوزارة والأهالى . وقد تقوم الوزارة بقطع إعانة المدرسة وربما بإغلاقها . وفوق هذا فقد تخلفت عن الدروس دون إذن من الناظر أو طلب إجازة مرضية إن كنت مريضاً حقاً . فأجبته : لا تنس أننى على العكس أحببت المدرسة . ونفخت فى روحها وجعلتها مدرسة بمعنى الكلمة . وإن كان هناك واجب وطنى أهم من مدرستكم أرى أنه يتعين على القيام به فليس هذا من شأنكم . وأنا مستعد

لتقديم استقالتى من الآن ، وعلى كل أنتم معذورون . وأقدر موقفكم ، ولن أحاسبكم عليه فيما بعد . إن الأهالى معى ما عداكم ، ومعى كل مواطن حر يحس فى قرارة نفسه بالدافع الوطنى لخدمة وطنه ، وتأييد الوفد المصرى الذى يطالب بحريتكم واستقلالكم وتخليصكم من عبودية الاحتلال والاستعمار . فإذا كنتم تخرجون على الإجماع ، وتتخلفون عن الركب فهذا شأنكم والشعب هو الذى سيحاسبكم على موقفكم منه . وتأزم الأمر وتحرج الموقف . وارتبك الأعضاء كأنهم فهموا مرمى كلامى ، وخافوا على أنفسهم من غضب الشعب . وتصدى المهندس « نسيم » لإنقاذ الموقف فقال فى تحمس وشجاعة . مع أنه متخرج فى إنجلترا وزوجته إنجليزية : أرجو أن ينتهى الموضوع عند هذا الحد . فأنا وأنتم وكل المواطنين المخلصين يعلمون تمام العلم أن « مظهر » و « حبيب » يقومان بعمل وطنى جليل باعتبارهما نائبين عن الوفد المصرى الذى يدافع عن حقوق البلاد . وهذا شرف عظيم لهما . وتعلمون كذلك كم من الزعماء ضحوا بأنفسهم . وقبلوا أن يقبض عليهم . ويزجوا فى السجون ، وها هم زعماء مصر الشيوخ العظماء فى المنفى ، وسيحدث أكثر من هذا وأكثر ، وكله لمصلحة البلد . والأستاذ « مظهر » جدير

بأن نشكره ونقدره ونساعده . وخاصة أنه لم يقصر فى واجباته المدرسية . بل قام بما هو فوق الواجب .

وتذكر الناظر خريطة السبورة وقال : هل كانت الخريطة خط سير المظاهرة الذى أطلعت الطلبة عليه قبل أن تخبرنا . فأجبت ببرود : نعم وأرجو أن تشاركنى أنت وأعضاء المجلس فى خروج المدرسين يوم المظاهرة بنظام . وتقودهم إلى مكانهم المحدد لهم بنظام . ليشتركوا فى المظاهرة مع بقية زملائهم ، وإلا خرجوا عليك وذهبوا من تلقاء أنفسهم أو تعتبر المدرسة خارجة على إجماع الشعب ؛ وهذا واجب كل وطنى . مسيحياً كان أو مسلماً . إلا إذا كنتم تفضلون بقاء الاحتلال ، وستسمع يا حضرة الناظر دوى المظاهرة عندما تبدأ من الإسكندرية إلى حلفا . وكان « منقريوس بك » رجلا حكيماً محنكاً أدرك مغزى عباراتى فقال فى تؤدة : باركك الرب ووفقك فى خدمة البلد . ولكن أرجوك ألا تعرض المدرسة للارتباك أو الخسارة . وانتهت الجلسة عند هذا الحد ؛ وخرج أعضاء المجلس واجمين . وشكرت المهندس « لبيب نسيم » على وطنيته الصادقة .

وفى المساء عقدنا اجتماعاً للإخوان العشرين الممثلين لمختلف

قطاعات الشعب بمنزل الشيخ « مصطفى قديس » المتطرف عن البلد ، وعرضنا الموضوع كله تفصيلا . وقلنا إن الدين يأمرنا بالجهاد فى سبيل الله والوطن ، ولو أدى الأمر إلى إسقاط الحكومة كطلب الوفد ، و بعد مناقشة قصيرة والرد على بعض الاستفسارات اتخذت القرارات الآتية بالإجماع وأقسمنا اليمين على تنفيذها :

١ — تأليف مجلس وطنى من الأعضاء الحاضرين يتولى الحكم المحلى بمديرية أسوان .

٢ — تعيين لجنة تنفيذية عليا رباعية برئاسة الأستاذ « محمد مظهر سعيد » وعضوية الأستاذ « محمد حبيب أحمد » نقيب المرغنية والشيخ « مصطفى قديس » ممثل الأعيان والتجار الأسوانيين و « جبالى عبد النبى جبالى » ممثل العربان .

٣ — تعيين فرقة من الحرس الوطنى المسلحين المتطوعين لحراسة الفيلا مركز اللجنة التنفيذية العليا وتلقى الأوامر وتبليغها .

٤ — الاستيلاء على جميع دور الحكومة وإقالة مدير المديرية وتعطيل المحكمة واستمرار جميع الموظفين فى أداء أعمالهم وصرف مرتباتهم الشهرية كالمعتاد من الأموال الأميرية

حيثما وجدت.

٥ – المحافظة على خزان أسوان والنزلاء بالفنادق .

٦ – حلف اليمين على القرآن والإنجيل باحترام هذه القرارات وتنفيذها بكل دقة وأمانة وإخلاص مهما كانت الظروف والنتائج حتى الموت .

٧ – إعلان هذه القرارات للشعب أمام سراى المديرية يوم المظاهرة .

٨ – إبلاغ هذه القرارات للوفد المصرى بكل وسيلة ممكنة .

وبعد حلف اليمين وكتابة عدة نسخ من القرارات رأست الجلسة . واخترنا المندوبين لإبلاغ القرارات للمواطنين كل فى منطقته . واقترحت أن يبقى الحكمدار الوطنى المخلص بسراى المديرية مشرفاً على البوليس والإدارة ، وأن يتولى الأستاذ « حبيب » رقابة المواصلات والفنادق ، و « أحمد حسنين » رقابة الخزان ، فوافقوا بالإجماع ، وقلت إننا فى حاجة للسلاح وخاصة أعضاء اللجنة الرباعية أما بقية الأعضاء فلديهم سلاحهم فتبرع كل من المهندس « أحمد حسنين » و « الشيخ عبد القادر » بمسدسين ووصلتنا المسدسات بالفعل ومعها كمية كبيرة من الطلقات.

وتمت كافة الترتيبات للمظاهرة المرتقبة وفق الخطة المرسومة ،

وشددت على المشرفين فى حفظ النظام والتزام الهدوء حتى لا يفلت الزمام من أيديهم فيندس بينهم بعض الغوغاء ويحدثون الشغب والفوضى وربما التخريب . وكان الحكمدار ينتظرنى بفندق « جراند » فاختليت به وقلت له : المدير رجل لا يطمأن إليه أما أنت فالجميع يعرفون صادق وطنيتك . ستقوم صباح الغد المظاهرة الشعبية الكبرى لتأييد الوفد فماذا يكون موقف البوليس إذا ما رأى المدير أن يفضها بالقوة ؟ هل تشتبكون مع الأهالى وأنتم قلة رغم سلاحكم ؟ أخشى إن حدث هذا فقد يحصل ما لا تحمد عقباه . ونحن نريد أن ينتهى اليوم بسلام . فابتسم وقال فى هدوء: نحن على علم كامل بكل شئ . وكذلك مفتش الداخلية . وقد اتصل بالمدير اليوم وأمره بفض المظاهرة بالقوة من نقطة البدء ومكان التجمع والقبض على الزعماء وخاصة أنتم الأربعة . ولكنى خالفته وأنذرته بالضرر البالغ الذى يحدث حتما من تعرض البوليس للشعب المتحمس الثائر . وقلت له : أنا لا أتحمل المسئولية . ولو تحملها هو وأصدر الأمر بنفسه عرض حياته وأسرته لخطر محقق . وأن الذى يفض المظاهرات فى مصر . كما علمنا . ليس البوليس المصرى وإنما الجيش البريطانى . فإن أراد المفتش أن يفض المظاهرة فليحضر بنفسه

على رأس العساكر الإنجليز . وأكدت له أن البوليس سيقف على الحياد . ويساعد على حفظ النظام ويحمى المظاهرة من الغوغاء . ولا أظن المدير — وهو رجل جبان كما نعرف — يجرؤ على تغيير رأيه ويصدر الأمر بالمنع . ولو فعل لخالفته وليكن ما يكون . وأقسم بالله على ذلك . وانصرف .

فاتصلت بالضابط « على سعد » تليفونياً وذكرت له حديث الحكمدار . وشرحت له الموقف وأبديت تخوفى من تردد المدير . ومن حدوث أى صدام بين البوليس والشعب . رغم تأكيد الحكمدار وخاصة وأن الشعب يكره البوليس بطبعه . وكذلك احتمال اعتداء الغوغاء . وربما بتدبير من المدير . على المتاجر والفنادق وغيرها من المبانى التى يجب المحافظة عليها ، فإذا استطاع الجيش أن يساعدنا فإنه يؤدى للوطن خدمة جليلة ، فأمهلنى ربع ساعة . طلبنى بعدها وأخبرنى أن قومندان أورطة الخزان رجل مسالم لا يحب أن يتورط فى أى عمل خارج عن حدوده ، ولكنه فى نفس الوقت يرحب بالثورة ويكره الإنجليز ويتضايق كل الضيق من نفيه فى أسوان بعيداً عن أسرته ، وساخط على الحكومة . ولهذا أقام نفسه بإجازة عارضة وترك الأمر لنا .

واتفقنا أن تنزل قوة كافية لأسوان . مشاة وفرساناً . بملابس الميدان والسلاح الكامل . ويترك الباقى لحماية الخزان . على أن يتم ذلك فجراً حتى يكون الجنود فى الأماكن المخصصة لهم قبل الثامنة صباحاً . وتقوم بعض السرايا بالمرابطة أمام المبانى الهامة لحمايتها . والبقية يقفون على جانبى شارع النيل ويرافقون المظاهرة . والمهم حماية منطقة الخــزان خوفاً من قيام العمال هناك بمظاهرة غير منظمة قد تنقلب إلى فوضى أو تمتد إلى مستعمرة الخزان وتهجم على المهندسين والموظفين الإنجليز . ويحسن التنبيه على هؤلاء بأن لا يبارحوا مستعمرتهم الخاصة بهم .

وكلفت « حبيب » بمقابلة قاضى المحكمة « على حيدر حجازى — باشا فيما بعد » — ويتفق معه على أن يفتتح الجلسة كالمعتاد وعندما تصل المظاهرة إلى سراى المحكمة تقف . وتهتف بحياة العدالة والقضاء النزيه وحياة القاضى . ويحضر « حبيب » ويطلب منه أن يقفل الجلسة باسم الشعب ويسجل ذلك فى المحضر الرسمى . وبعد ذلك يستمر فى نظر القضايا على أن تصدر الأحكام باسم — شعب مصر الحرة المستقلة — فوافق على الجزء الأول فقط . وفضل إغلاق المحكمة . فوافقه

« حبيب » على ذلك — ثم توجه إلى فندق « جراند » و « كتراكت » وقابل الضباط الإنجليز والنزلاء الأجانب وشرح لهم بالإنجليزية الغرض من المظاهرة وطمأنهم على حياتهم وممتلكاتهم . وبما أن المواصلات مقطوعة تماماً ولا سبيل للانتقال إلى القاهرة أو السودان . فسيبقون ضيوفاً معززين مكرمين إلى أن تنجلي الأمور . ولهم أن يتريضوا ويتنقلوا خارج الفندق كما يحلو لهم ولكن بملابس مدنية . وطلب من إدارة الفندق دفتراً جديداً من دفاترها يدونون فيه كل طلباتهم يومياً وسيقوم هو شخصياً بالاطلاع عليه ويحقق مطالبهم . ومقترحاتهم على قدر الإمكان . فشكروه شكراً جزيلا . وافتتح كبيرهم الدفتر بكلمة شكر وتقدير أمضوها جميعاً بأسمائهم وألقابهم ورتبهم العسكرية ونجحت المهمة .

١٥ مارس ١٩١٩

فى الساعة السابعة من صباح هذا اليوم اجتمعنا نحن الأربعة أعضاء اللجنة التنفيذية العليا بالڤيلا . وتوجهنا إلى مدرسة الصنايع فى شبه مظاهرة صغيرة وحولنا حرس مسلح من أربعة من رجال « النجار بك » ، وكان كل شىء هادئاً . وكنا قد طلبنا من « طه كحالة » الانتظار على مدخل أسوان من طريق الشلال ليعلمنا بمجرد وصول الأورطة . فرأيناه يجرى نحونا مسرعاً ويصرخ متهللا من بعيد : وصلت . وصلت . . وأخذت السرايا تحتل أماكنها المخصصة لها أمام المبانى الهامة والفنادق . وانتشر الباقون على جانبى شارع النيل بين رجال الشرطة ، الذين نظروا إليهم فى دهشة ووجوم ثم انفرجت أساريرهم وتبادلوا التحية فرحين . فقد أنقذهم جنود الجيش من موقف خطير كانوا يخشون عواقبه لو ركب المدير رأسه .

وفى الساعة الثامنة بدأت الجموع تفد إلى مدرسة الصنايع ، وتتخذ أماكنها فى نظام وهدوء بتوجيه المشرفين ، ووزعنا عليهم الأعلام واللافتات . وسلمنا الموكلين بالهتاف أوراقاً صغيرة

كتبت عليها العبارات . وتجمع بقية الأهالى على جانبى شارع النيل وفى المتاجر والمقاهى والبيوت وشرفات الفنادق فى هدوء تام وترقب وانتظار لساعة الصفر .

وقبل التحرك جاء « محمد على سعد» راكضاً بجواده وأخبرنى أن المدير كان أمام باب سرايه متهيئاً لركوب عربته إلى سراى المديرية . فلما شاهد جنود الجيش المسلحين تملكه الفزع وناداه وبادره قائلا : لماذا نزلت الأورطة إلى أسوان بسلاحها بدون إذنى؟ أنا مدير المديرية والحاكم المسئول آمرك أن تعود بالأورطة إلى الخزان فوراً ، وسأبلغ الرئاسة العليا فى القاهرة ، فأجابه ببرود : أنا لا أتلقى أوامرى منك فافعل ما بدا لك إذا استطعت. ولكنى أنذرك إذا أمرت البوليس بالتحرش بالمظاهرة فسأتدخل بالقوة لحماية الشعب ، وعليك وحدك أن تتحمل المسئولية ، وقد تعرض حياتك وأسرتك لخطر بالغ . وأنصحك أن تعود إلى المنزل لأن ظهورك الآن يثير المتاعب . ما لم ترأس المظاهرة. فبادر الحكمدار يقول للمدير : إن شاء الله يتم كل شىء فى هدوء وسلام ، ونحن مع الشعب على كل حال . فاشتد غضب المدير وقال فى حدة : إذن تتحمل أنت المسئولية، ولن أذهب للمديرية . وعليك أن تبلغ رؤساء المظاهرة الأربعة إياهم أنى

أريد مقابلتهم بالمنزل الساعة الخامسة بعد ظهر اليوم ، وداف إلى منزله كالكلب يجر ذيله بين رجليه .

وبعد قليل جاء الحكمدار على جواده وأخبرنى بما حدث وقال : يحسن أن تحضروا مسلحين لإرهابه ولا تخشوا شيئاً فسأكون هناك . وفى الساعة التاسعة ألقى « توفيق رشدى » كلمة للمدارس حث فيها رجال التعليم والطلبة والطالبات على النظام وأداء الواجب الوطنى ، وألقيت « أنا » كلمة قصيرة شرحت فيها قضية مصر ودور الوفد المصرى فى الدفاع عنها وواجب المواطنين نحو الثورة ودعوتهم للتضحية والفداء فى سبيل الله والوطن ، وانطلقت الهتافات فرددتها الجماهير بصوت كالرعد وشاركهم فيها الجيش والبوليس وزغردت النساء .

وبدأت المسيرة فى مقدمتها مدرسة الصنائع ، وفى المؤخرة أعضاء المجلس الوطنى ، وأمام الدير وقفت الراهبات الإيطاليات بملابسهن البيضاء يحملن العلم الجديد « الهلال والصليب » وأخذن يهتفن بالإيطالية « تحيا مصر ، يحيا الشعب ، ليبارككم الرب » فوقفت المظاهرة قليلا لرد التحية . وأمام المستشفى الأميرى خرج الأطباء والموظفون والمرضى للهتاف والتحية . ووقفنا قليلا أمام سراى المدير فكان الهتاف مدوياً ، ورأيت من خلف

المشربية العليا وجوهاً وعيوناً تتطلع عرفت من بينها المدير بسيجارته التي تهتز بين شفتيه ، ثم وقفنا أمام سراى المديرية فصعد « حبيب » ومعه بعض المساعدين ورفعوا عليها علم الثورة بين الهتافات المدوية والزغاريد . ثم نزل فتلا قرارات المجلس الوطني فقابلها الشعب بحماس جنوني منقطع النظير ، تنفيساً عن الحرمان والكبت الطويل ، وتجمع نزلاء فندق « جراند » في الشرفة فألقيت عليهم كلمة قصيرة بالفرنسية والإنجليزية أطمئنهم فيها على أنفسهم فهم ضيوفنا المعززون المكرمون ، فصفقوا طويلا وهتفوا بحياة مصر . واشتد التعب . « بجبالى عبد النبي » وبدأ يسعل سعالا حاداً وينفث دماً فصعدنا به إلى غرفته بالفندق . وفي المحكمة تم الأمر حسب الاتفاق . وفي محطة السكة الحديد كان قطار الأقصر على الرصيف ، وفجأة رأيت جزاراً من أسوان معروفاً بشراسة الخلق اسمه «برجى — برقى» يجرى نحو القطار ومعه بعض الغوغاء وأدركت غرضه فاعترضت طريقه وقلت له : اعقل يا « برقى » نحن لا نريد إتلافاً وتخريباً . فقال في عناد : «اشمعنا في جنا (قنا) وسيوط كسروا البواجير وجطعوا التلغراف والتلفون ؛ هو احنا مش رجاله زيهم » ودفعني جانباً — فأشرت لضابط الجيش المرابط بالمحطة

فأسرع هو وبعض الجنود وقبضوا عليه وأوسعوه ضرباً. فتدخلت لإطلاق سراحه بعد أن اعتذر بأنه ظن أنه كان يؤدى واجباً وطنياً ، وكان هذا هو الحادث الوحيد الذى كاد أن يفسد المظاهرة .

وعادت المظاهرة إلى مدرسة الصنائع مخترقة « القيسارية » حيث كان « طه كحالة » يخطب التجار عن الثورة والوفد ، وبعد الإذن بانتهاء المظاهرة استمر الطلبة وقتاً طويلا يطوفون بشوارع المدينة هاتفين مهللين ، وانصرف الأعيان والتجار والموظفون مشكورين . وتفرق أعضاء المجلس الوطنى كل لقطاعه لتلاوة القرارات وشرحها ، وبقينا نحن للعناية بالمريض .

وحضر الضابط « محمد على سعد » مستأذناً فى العودة إلى الخزان مع الأورطة ، بعد أن تمت المهمة بنجاح ، فأخبرته باجتماعنا مع المدير بعد الظهر وما قاله الحكمدار عن سوء نيته ، فاستقر الرأى على أن يبقى « بدر الدين » ومعه سرية لحراستنا والتدخل عند اللزوم ، وذهبنا نحن الثلاثة « أنا » و « مصطفى قديس » و « حبيب » مع الضابط والسرية إلى الڤيلا لتناول طعام الغذاء والاستراحة . وتوجهنا فى الموعد المحدد إلى سراى المدير ، فدخلنا وتركنا الضابط والسرية بالخارج . فوجدنا المدير

جالساً فى صدر الصالون وبجواره الحكمدار وبعض ضباط البوليس بمسدساتهم . وجلسنا نحن إلى أريكة فى مواجهته . وبدأ الهجوم قائلا : أنا بصفتى المدير المسئول عن المديرية أعتبركم خارجين على الحكومة والنظام العام،وهذه جريمة خطيرة أنتم تعلمون فداحة عقوبتها . وأنا مضطر لإبلاغ السلطات العليا . ولهذا أصدرت أمرى بإلقاء القبض عليكم أنتم وزميلكم المريض فى الفندق بعد أن يشفى وإيداعكم السجن فوراً ، إلى أن تصل الأوامر بشأنكم . وها هم الضباط مسلحون ومأمور السجن حاضر لاستلامكم فكونوا عقلاء وسلموا سلاحكم إن كان معكم سلاح بالتى هى أحسن ولا تقاوموا .

فأجبته مبتسماً : لعلك لم تسمع قرارات المجلس الوطنى ، فها هى ، وتلاها « حبيب » بصوت مرتفع فاصفر وجهه واهتز شاربه الكث الكبير ، وتلفت حواليه مستنجداً بالحكمدار والضباط . الذين أطرقوا برؤوسهم . وأضفت قائلا : وبناء على هذه القرارات وإرادة الشعب فأنت الآن يا سعادة المدير السابق مواطن عادى خاضع لأوامر المجلس الوطنى ، وعليك أن تلزم بيتك دون اعتراض أو مقاومة ، ولا تتصل بأحد بصفتك الرسمية التى زالت عنك ، وسنقوم بكل طلباتك ونصرف لك

مرتبك أول كل شهر كالمعتاد — وأخرجنا مسدساتنا ووضعناها أمامنا على المنضدة وقلت : إذا خطر ببالك أن تستخدم القوة فى منزلك هذا فأنت وحدك المسئول عما سوف يحدث ونحن مسلحون كما ترى ، وفوق هذا فالجيش يحيط الآن بالمنزل وأنت لا سلطان لك عليه . وناديت الضابط « بدر الدين » فحضر مسرعاً ومعه بعض الجنود وأدى التحية العسكرية وقال : « أفندم » أوامرك . فنظر المدير للحكمدار الذى أحنى رأسه موافقاً . فأخذ المدير يراوغ وتكلف الابتسام، ثم نادى يطلب القهوة والشاى والسجاير . فطلبت من « بدر الدين » أن يبقى معنا ويبقى الجنود بالخارج للحراسة .

وبعد تناول القهوة والشاى قال المدير فى صوت رقيق عليه مسحة من التكلف كأنه يستجدى العطف : اسمع يا « حبيب » و « مظهر » أنتم زى أولادى تماماً . وأنا أنصحكم نصيحة خالصة لوجه الله . أنا لست أقل وطنية منكم ولكن تصرفكم عمل جنونى . ماذا تستطيعون أن تفعلوا أمام قوة الإنجليز . سيأتون بقواتهم عما قريب ويحتلون البلد ويحاكمونكم عسكرياً ويعلقونكم على المشانق كما فعلوا فى دنشواى . انظروا لبعيد وفكروا فى مستقبلكم ولا تضيعوا أنفسكم . أنا والله العظيم ثلاثاً لست خائناً

للوطن وأكره الاحتلال والإنجليز ومفتش الداخلية الحاكم بأمره وأتمنى خروج الإنجليز النهارده قبل بكره ، ولكنى أكبر منكم سناً وأكثر خبرة، وأحسب حساب العواقب ، والشيخ « مصطفى » يعرف تماماً ما فعل الإنجليز فى السودان فى ثورة المهدى وهنا فى ثورة عرابى . فرد الشيخ « مصطفى » : ولكن الجيش المصرى هو الذى مهد الطريق وضحى ، ولولاه لما استطاع الإنجليز أن يدخلوا السودان، وأن يبقوا فيه يوماً واحداً، وعاد المدير يقول : انظروا للمستقبل . واستفيدوا من دروس التاريخ . شوفوا إزاى هزموا ألمانيا العسكرية القوية فى الحرب . فقال « حبيب » : قد يكون هذا صحيحاً ، وكل هذه النتائج متوقعة ، ولكن لابد للحرية من ثورات وتضحيات، وما دمت تذكر التاريخ وأنا أستاذ تاريخ ، هل نسيت أن ثورات الجيش مع الشعب هى التى طردت الهكسوس والفرس واليونان والرومان ونابليون من مصر ؟ وقد كانوا فى أيامهم أقوى من الإنجليز فى أيامنا . ولو استمر المصريون يشعلون نار الثورة كل سنة مهما قدموا من ضحايا وشهداء لخرج الإنجليز من زمن بعيد . نحن لا نحارب السلطان والإنجليز كما فعل عرابى مع الخديو ، وإنما نحن نرفع صوت مصر عالياً ليسمعه العالم

كله. ونؤيد الوفد الذى اختاره الشعب ليدافع عن قضية الوطن . والمظاهرة كانت مثلا رائعاً للنظام وانتهت بسلام . والأمر الآن بيد الشعب ، وسيخرج الإنجليز من مصر يوماً ما بإذن الله . فقال المدير : أنا أعلم أن البلاد كلها فى ثورة وقد قمتم بواجبكم اليوم ، وكفايه لحد كده ، فاتركوا الأمور تجرى فى مجراها الطبيعى وتعود كما كانت. وبلاش هذه القرارات ، وإن سألنى جناب مفتش الداخلية فسأقول له إنها كانت مظاهرة بسيطة قام بها بعض الطلاب والشبان ولا شأن لكم بها . فقاطعته قائلا : أبداً ، نحن نريد أن يعلم جنابه ، إذا قدر له أن يعلم ، أن الشعب كله هو الذى قام بها ، وأن الشعب الآن هو صاحب السيادة. فعاد يقول : أنا أقسم بشرفى بل أقسم بالطلاق ثلاثاً من أهل بيتى أنه إذا حدث وعاد الإنجليز بقواتهم المسلحة إلى أسوان وسألونى سأنكر كل شىء وأقول إنه لم يحدث أى شىء على الإطلاق ، لا مظاهرات ولا خلافه . فتدخل الحكمدار وقال : الحمد لله لم يحدث أى اعتداء أو إتلاف أو تخريب ، وأنا مع المظاهرة من أولها لآخرها ، وكانت على أتم ما يكون من النظام والهدوء . بل كانت فى الحق مثلا رائعاً للمظاهرة الوطنية الشعبية ومفخرة لأسوان . وأردت إنهاء الحديث فقلت للمدير :

لقد أقسمت يميناً مقدسة وأنت وحدك تتحمل الوزر إذا حنثت بها . ولكن مع تقديرنا لنصائحك لابد من تنفيذ قرارات المجلس الوطنى إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولا . وأنا بدورى أقسم لك نيابة عن المجلس أنه لن يصيبك أى مكروه ما دمت تلتزم الهدوء والسكون ، وستكون البلد بإذن الله فى أمان تام . وتصافحنا وخرجنا منتصرين ، وعاد الجيش إلى ثكنات الخزان مشكوراً محموداً .

ودعونا المجلس الوطنى للاجتماع فى مساء اليوم التالى بالفيلا، ووزعنا الأعمال والاختصاصات . وحددنا لكل عضو واجباته فى العهد الجديد ، وتم الرأى على أن يبقى كل شيء على ما هو عليه . فيتولى الحكمدار شئون الأمن والبوليس والإدارة وتستمر المصالح الحكومية والمدارس كما هى ما عدا المحكمة ، ويشرف المجلس على كافة شئون الحكم وتصدر القرارات بأغلبية الأصوات، وتقوم اللجنة التنفيذية العليا بإصدار الأوامر اللازمة لتنفيذ قرارات المجلس . وبدأ أصحاب الشكاوى والمظالم يفدون على الفيلا فكنا ننظر فيها ونحلها فوراً بعيداً عن الروتين الحكومى المعهود ، وشعر الناس لأول مرة بميزة الحكم الشعبي المحلى، فكانوا ينفذون القرارات والأوامر دون أى معارضة.

وحضر المهندس « حسنين » وهو بادى القلق والاضطراب وأنبأنا بشيء بالغ الخطورة وهو أن مهندسى الخزان وموظفيه الإنجليز حملوا السلاح وتحصنوا فى مستعمراتهم ووضعوا كميات ضخمة من الديناميت فى بعض عيون الخزان بنية نسفه إذا بدرت بوادر أى مظاهرة شعبية أو محاولة لاقتحام المستعمرة. وقد حاول أن يقنعهم بخطأ مسلكهم ويطمئنهم على أنفسهم فليس هناك أية نية للتحرش بهم . وهناك ضباط إنجليز ينزلون مع أسرهم فى فندق « كتراكت » بأسوان وهم فى غاية الأمان والسلام ، ولكنهم لم يقتنعوا ، بل إنهم بدءوا التحرش بالعمال والموظفين المصريين واستفزازهم بالصلف والغطرسة والتهديد . فكلفنا كتيبة الخزان بفرض الحصار على المستعمرة والتنبيه عليهم بعدم مباشرة أعمالهم أو الخروج من دائرة المستعمرة ، وستجاب لهم كل مطالبهم وندبر لهم احتياجاتهم وتصرف لهم مرتباتهم ، ويتولى المهندسان « أحمد حسنين » و « محمد عبد الله » إدارة شئون الخزان ، ولا يسمح لأحد بدخول منطقة الخزان إلا بترخيص خاص من المهندس المصرى المسئول، وتم فوراً نزع الديناميت من عيون الخزان، ولو شاء القدر الغاشم أن يتم تدبير الإنجليز الشيطانى ونسف الخزان أو أى جزء منه لكانت كارثة كبرى

على البلاد ، وفى الحق إن « أحمد حسنين » كان بطلا يستحق تقدير الوطن .

وقدرنا أن القوات البريطانية لا بد أن تصل يوماً ما إلى أسوان ، إما من حلفا بحراً وبراً أو من القصير براً أو من الأقصر إذا فشلت الثورة وأصلحت السكة الحديد . وخشينا أن نفاجأ على غرة ، فأمرنا ناظر محطة الأقصر أن يخطرنا فوراً تلغرافياً بمجرد وصول أى قوة إنجليزية . وكذلك مكتب التلغراف « بعنيبه » فى النوبة . وكذلك قبيلة « البشارية » المنتشرة بين أسوان والسودان عن أى قوة تصل عبر الصحراء . ونبهنا على القائمقام « سيد لبيب » ضابط الاتصال بمحطة الشلال ، بقطع الاتصال بالسودان نهائياً ، والرد عند الاستفسار بأن كل شيء هادئ وطبيعى ، والبواخر القادمة من حلفا يستقبلها ويحجزها ويمنعها من العودة ، ويخطرنا بأسماء ركابها وعددهم لندبر وسائل نقلهم إلى أسوان وأماكن الفنادق اللازمة لهم ، وسيكون تحت رقابة ضباط الجيش والرقيب العام الأستاذ « حبيب » وأقسم الرجل على احترام هذه الأوامر وتنفيذها .

٢٠ مارس ١٩١٩

فى يوم ٢٠ مارس ١٩١٩ أخبرنى « سيد لبيب » أن السير « برنارد باشا » السكرتير المالى لحكومة السودان وصل إلى الشلال بالباخرة من حلفا ، ومعه بعض الضباط الإنجليز وأسرهم فى طريقهم إلى إنجلترا لقضاء إجازاتهم ، وكأن أخبار الثورة لم تصلهم على حقيقتها . فأخبرهم أن المواصلات مقطوعة من قنا . ولكنهم أصروا على السفر ، فأعددنا لهم قطاراً خاصاً ينقلهم رأساً إلى الأقصر دون التوقف فى أى محطة خوفاً عليهم من غضب الأهالى ، وأخطرنا ناظر محطة الأقصر باتخاذ التدابير اللازمة لحمايتهم وسافروا بسلام بعد أن زودناهم بكل ما يحتاجون إليه .

وفى يوم ٢٢ مارس عادوا من الأقصر فأرسلنا حرساً ينقلهم إلى فندق « كتراكت » وأعددنا لهم غرفهم ونزلوا فيها على الرحب والسعة ، فسجلوا شكرهم فى دفتر الفندق بعد أن سمعوا من النزلاء السابقين ما فعلناه من أجل راحتهم وحمايتهم . ويبدو أن حديث النزلاء « لبرنارد باشا » عنا أثار فضوله ، ودفعه حب الاستطلاع إلى معرفة الشىء الكثير عنا وعن حركتنا ، لأن

أخبار مصر التى وصلت السودان كانت قليلة لا تغنى ولا تشبع . وكانت معظم المعلومات مشوهة مغرضة بحيث تقلل من شأن الثورة ولا تكشف شيئاً عن حقيقة الوضع فى مصر . وقد قابلها الحكام الإنجليز هناك وخاصة العسكريين بعدم الاهتمام بل بالشيء الكثير من الاستهتار كعادتهم ؛ فهم مشبعون بآراء « اللورد كرومر » التى طالما رددها فى تقاريره السنوية عن مصر . وهى أنها بلد الفلاح الأمى الفقير المريض المتواكل القدرى الذى لا يمكن أن ينهض ويتطور ويرتقى ويقف على قدميه إلا بفضل الاحتلال البريطانى . وتصريح « اللورد كيرزون » بأن الثورة المصرية شعلة تطفئها بصقة . واعتقادهم أن المصرى مهما تعلم ولو حتى فى بلادهم وتمدين وتحضر فى الظاهر ووضع البيبة فى فمه وحول لسانه بالرطانة واصطنع الأساليب الغربية فى حياته ، فكل همه وأقصى أمانيه أن يتمرغ فى تراب الميرى وأن يكون موظف حكومة خاضعاً ذليلا يتفانى فى خدمة سيده ورئيسه الإنجليزى السوبرمان . وأن تحت ملابسه الإفرنجية جلد الفلاح المستعبد من آلاف السنين .

وأرسل لنا رسولا يدعونا لتناول الشاى معه فى الفندق أو يزورنا هو بالڤيلا ، فأجبنا بأنه يسعدنا أن نزوره أولا

احتراماً لمقامه . وهناك قادنا الخدم إلى الحديقة المطلة على النيل حيث أعدت مائدة كبيرة للشاى ، وقف حولها فى انتظارنا عدد من الضباط من مختلف الرتب يتوسطهم «الباشا» ومعهم سيدة عجوز وقور وشابة جميلة رشيقة ، وأحسست بمجرد الاقتراب منهم أن عيونهم مسلطة علينا تدرس حركاتنا وسكناتنا وتقيسنا بمقاييس السلوك الإنجليزية . ومن حسن الحظ أن المستر «فيرنس» ناظر الخديوية كان فى كل أسبوع يدعو نخبة من أبطال الرياضة وخاصة فريق الجمباز ، وأنا منه ، لتناول الشاى بمنزله الملحق بالمدرسة ويحتفى بنا هو وزوجته وينتهز الفرصة ليعلمنا آداب السلوك الإنجليزية وتقاليدها ويدربنا عليها ، ومنها أن الزائر الإنجليزى العادى يصافح مضيفيه وبقية الحاضرين واحداً واحداً كما يفعل المصريون ويقول : كيف حالك ، أنا سعيد أو مسرور بلقياك، وغير هذا من عبارات المجاملة ، أما الإنجليزى المثقف الراقى فيصافح المضيف فقط ويحنى رأسه انحناءة خفيفة لابقية ويرد على التحية بعبارة واحدة تقليدية (هاو . دو . يو دو)، ومنها أنه لا يجلس قبل جلوس السيدات ، وعلى المائدة يفسح الكرسى لجارته حتى تجلس ويصلح لها الكرسى ويهتم بها ويتحدث إليها بصوت منخفض

إلا إذا اشترك الجميع فى حديث عام . ويقدم لها ما تحتاج إليه وهكذا ، ولهم تقاليد وطقوس خاصة بالشاى يتمسكون بها كما يفعل العرب بطقوسهم . فإذا اجتاز الزائر هذه الاختبارات بنجاح انشرحت صدورهم له وارتفعت الكلفة وعاملوه دون تكلف على قدم المساواة ولو كان عدوًّا أو زنجيًّا . وهم أجهل الناس باللغات الأجنبية ويحترمون من يتقن لغتهم ويزداد إعجابهم إذا كان يعرف أكثر من لغة .

وقد هرع إلينا « الباشا » محيياً فرددنا التحية وحيينا الآخرين على طريقتهم وجلسنا إلى الشاى ، السيدة العجوز على يمينى والباشا على يسارى وأمامنا جلس « حبيب » وعلى يمينه الشابة الجميلة وعلى يساره أكبر الضباط رتبة ، واجتزنا امتحان الشاى بأمان وسلام . فظهرت علائم الرضا على وجوههم . والإنجليز يقولون : إن مشاكل الإمبراطورية تحل على فنجان شاى ، وقد بدءوا أول الأمر يتحفظون فى كلامهم ولا يسألون أسئلة شخصية أو مباشرة وإنما يتحدثون أحاديث عابرة عن الجو والصحة ويضبطون انفعالاتهم فلا يبدو على أساريرهم شىء مهما كان الأمر مثيراً ، ويتصنعون البرود الذى اشتهروا به ، وإذا أعجبتهم نكتة تثير الضحك عند غيرهم ابتسموا ابتسامة

باهتة لا لون لها كأنها كليشيه مصطنع ، فإذا ما حل الشاى عقدة الألسنة وذاب الثلج كما يقولون وأعجبهم سلوك الزائر ولغته عادوا طبيعيين دون تكلف أو تحفظ .

وهكذا بعد الشاى جلسنا فى مقاعد مريحة أعدت فى نصف دائرة تطل على النيل .

وبدأت الشابة الحديث وتنهدت وقالت : ما أجمل نيلكم وأعذب ماءه وأطيب هواءه وأجمل منظره، إنى أحسدكم عليه وسأظل أحلم به عندما أعود إلى وطنى إنجلترا . فابتسمت وقلت : هناك مثل قديم يقول : من يشرب من ماء النيل مرة فلابد أن يعود إليه . ولعل المستر «هابيب» — أى «حبيب» — أستاذ التاريخ والجغرافيا يتحفنا بكلمة عن النيل .

وانطلق « حبيب » وأفاض فى الحديث بلغته الفصيحة السليمة عن تاريخ النيل وعادات المصريين القدماء وطقوسهم فى مواسم النيل ، وسأل أحد صغار الضباط : هذا المعبد الكبير الرائع فى الجبل الذى رأيناه من الباخرة من بناه ؟ وكيف بنى ؟ لا شك أن أجدادكم الفراعنة كانوا جبابرة وفى غاية المهارة . فذكر لهم «حبيب» تاريخ معبد «أبو سمبل» المحفور فى الجبل . والتقطت منه الخيط وأخذت أتحدث عن حضارة

الفراعنة التى هى أم حضارات العالم وأثرها فى جميع البلاد والشعوب ، فهى التى علمت العالم القراءة والكتابة والحساب والعلوم والفنون والآداب . واستشهدت بأقوال كبار علمائهم «السير فلندرس بترى » و « برستيد » و «شمبليون » الفرنسى. وبدت الدهشة على وجوههم عندما قلت : إن الحضارة الإغريقية التى يعتبرها الغرب أصلا لعصر النهضة وحضارة أوربا الحديثة إنما هى وليدة الحضارة المصرية القديمة ، فقد كان « أفلاطون » و « أرشميدس » و « فيثاغورس » طلاب علم فى جامعات مصر الفرعونية يجلسون تحت أقدام الكهنة والأساتذة المصريين ويأكلون من فتات موائد علمهم . بل إن النبي موسى كان مصريًّا تعلم فى جامعات مصر ، والتوراة الأصلية لغتها هيروغليفية وليست عبرية ومزامير « داود » وأناشيد سليمان مقتبسة من أناشيد فرعون مصر « أخناتون » أبى التوحيد والديمقراطية والاشتراكية . وقال ضابط آخر : تريد أن تقول إن مصر القديمة كان بها جامعات بالمعنى الذى نعرفه . نحن نعلم أن الجامعات الأوربية وليدة عصر النهضة الأوربية . فقلت : كم يزيف الغرب التاريخ ليثبت تفوقه على الشرق ! وحضارة مصر محفوظة مسجلة على

الآثار قبل أوربا بآلاف السنين تقف دليلا قاطعاً على كذب الغرب . إن أقدم جامعاتكم « كمبردج » التى تعلمنا فيها أنا وزميلى يرجع تاريخها إلى القرن الحادى عشر الميلادى ، أما مصر الفرعونية فقد كان فيها خمس جامعات منذ أكثر من خمسة آلاف سنة . وتدرس فيها جميع العلوم والفنون والآداب وآثارها باقية إلى الآن ،وعرب الأندلس هم الذين أنشأوا أول جامعة حديثة قبلكم فى «ساليرنو » بإيطاليا ، وعلى غرارها أنشئت جامعات إيطاليا ثم فرنسا ثم إنجلترا . فقاطعنى « برنارد باشا » قائلا : تقول أنت وزميلك تعلمتما فى كمبردج . فأجبت : نعم . نحن « كانتاب » (اسم اصطلاحى يطلقه طلاب « كمبردج » على أنفسهم) وكنا ندرس هناك لدرجة « تريبوس » وجاءت الحرب فعدنا إلى مصر ونرجو أن تهدأ الأمور فنعود ثانية لاستكمال دراستنا . وهنا ذكرت زميلى «حسنين فهمى » بالخير ، فلولاه ما وجدت الفرصة لأستعرض معلوماتى التى حفظتها عنه . فقال: لقد كنت طول الوقت أعجب من لغتكما الراقية ونطقكما السليم ، فأنتما تتكلمان الإنجليزية كأرقى الإنجليز المثقفين ، والآن عرفت السبب . فقلت : كلا يا سيدى فنحن تعلمنا اللغة هنا فى مدارسنا المصرية قبل السفر

لإنجلترا ودرسنا أصولها ومتنها وأدبها ومسرحيات شكسبير وغيره من كتابكم الكبار . ولم تزدنا « كمبردج » علماً باللغة أو العلوم أو الآداب أو حتى آداب السلوك وإنما أفادتنا فيما هو أهم وهو دراسة الحياة الإنجليزية على الطبيعة والنظم الاجتماعية والديمقراطية والسياسية .

قالت السيدة العجوز : مدهش جداً . هل أنتم حقيقة مصريون ؟ ومعذرة لهذا السؤال الشخصى . فأجبت : بكل تأكيد يا سيدتى نحن مصريون إلى عظمة الظهر ، كما تقولون . دمنا من ماء النيل وجلدنا من تراب مصر . فهزت رأسها وقالت: إذن فأنتم من طبقة الأرستقراط ما دمتم قد تعلمتم فى « كمبردج» فقلت : كلا يا سيدتى مرة أخرى ، فنحن من أوساط الناس ومثلنا فى مصر كثير بل أرقى منا وأكثر علماً . وليس لدينا طبقة أرستقراطية بالمعنى المعروف عندكم . ورتبة « بك » أو « باشا » ليست ألقاب شرف ونبل موروثة مثل « لورد » و « إيرل » و « فيكونت » الإنجليزية ، وإنما هى علامات تقدير وتكريم من الدولة للموظف الذى تفوق فى عمله أو المواطن الذى قدم الخير لبلاده ، وهى رتب شخصية لا تورث، وهنا نحن مدرسان من أسرة متوسطة كما ترين ، حقيقة كان

جدى الكبير «لطيف باشا» حاكماً عامًّا للسودان سنة ١٨٥٠ قبل الثورة المهدية ، وجد «حبيب» من كبار نقباء الميرغنية فى السودان ، و «الباشا» يعلم بالتأكيد مكانة الميرغنية المقدسة. ولكن أجدادنا شىء ونحن شىء آخر . أما عندكم فالابن الأكبر لأسرة النبلاء يرث اللقب والأملاك والثروة كلها مع المقعد الوراثى فى مجلس اللوردات ، ولو كان شابًّا جاهلا مستهتراً أو منحرفاً. بل إن البنت قد ترث إذا لم يكن هناك ولد . فقال الباشا : أظنك محقًّا فى بعض ما قلت. ولكن هذه التقاليد موروثة . ونحن شعب يقدس التقاليد القديمة ويتمسك بها ، ولعل هذا من أهم أسباب مجد الإمبراطورية وعظمتها . فقلت : نعم إن مظاهر تغيير الحرس فى قصر بكنجهام وحفلات التتويج وملابس حراس برج لندن وشعر القضاة الأبيض المستعار جميلة ورائعة ، وإن الحارس الذى عين ليقف على صخرة «دوفر» ويتطلع إلى المانش وشاطئ فرنسا المقابل لينذر بمجىء أسطول «نابليون» لا يزال فى مكانه محافظة على هذا التقليد ! فضحك «الباشا» والسيدة العجوز، وسأل أحد الضباط فى تعجب : هل هذا صحيح ؟ فرد عليه : مع الأسف الشديد نعم! فهذه هى الناحية المضحكة من جمود التقاليد . وهز رأسه وأشار

بأصبعه للضباط وقال : ليس عجيباً أن يعرفا تاريخ بلدهم ولكن العجيب أن يعرفا عن تاريخ بلدنا وعاداتنا وتقاليدنا أكثر مما يعرفه الكثير منا . والحق أقول إننا نحن الإنجليز قوم مغلقون فى عاداتنا وتقاليدنا، فنحن لا نتقن لغة أجنبية والذى يعرف منا لغة أجنبية ينطقها باللكنة الإنجليزية . ونحن لا نهتم اهتماماً كبيراً بشئون العالم الخارجى ودراسة الأمم والشعوب الأخرى . وهذا نقص كبير فى الثقافة ، واحمر وجه صغار الضباط لهذا التصريح ، خجلا أو غضباً . فقلت لأخفف وقع هذه العبارة عليهم : لكنكم معذورون يا « باشا » . ولو كنا مكانكم لفعلنا نفس الشىء ، فأنتم أصحاب أكبر وأعظم إمبراطورية تملك خمس العالم ، ولا تغيب الشمس عن أملاكها . ولكم فى الشئون العالمية أكبر وزن وآخر كلمة ، وتحركون السياسة العالمية فى الاتجاه الذى يخدم مصالحكم دون معارض أو منافس ، فطبيعى أن تعتقدوا أنكم جنس ممتاز «سوبرمان» وشعب الله المختار وبوليس العالم . والسوبرمان بطبيعة الحال يعيش فى برجه السماوى العاجى ، ولا يهتم بشئون الدول والشعوب الأخرى ولغاتهم وتقاليدهم ، وهذه ألمانيا الدولة العسكرية التى كانت تثير الرعب فى قلوب أوربا قال فيلسوفها « نيتشه » إن الجنس الجرمانى أرقى جنس ، والدم

الآرى أنقى دم، وكان نشيدها « ألمانيا فوق الجميع » تحدت بريطانيا فهزمت فى الحرب وتحطمت. فمن أولى بلقب السوبرمان غيركم .

ويبدو أن هذه العبارة الأخيرة قد فتحت باب السياسة على مصراعيه بعد أن كانوا يتحرجون عن الدنو منه طوال الجلسة ، إذ قال أحد الضباط الصغار فى تحمس زائد : شكراً لك على هذه المجاملة، ولكن إذا كنت تعتقد هذا حقًّا فلماذا تكرهون الإنجليز وتثورون ضدهم ، وتحاولون طردهم من البلاد مع أن بريطانيا كانت دائماً تحاول إنقاذ مصر من ظلم المماليك ونابليون ، واحتلت البلاد فعلا لإنقاذها من ثورة الفلاحين ودكتاتورية عرابى وحماية الخديو الحاكم الشرعى للبلاد ، وتنشر الأمن وترفع مستواها فيعم الرخاء. والاحتلال إجراء مؤقت على كل حال إلى أن يصبح الشعب أهلا لحكم نفسه بنفسه ، فقلت فى نفسى : ها هم بدءوا يفصحون عما فى نفوسهم من شعور مكتوم بعد أن انتهت جولة المجاملات، ورأيت نظرة التحدى فى عيون الكثير منهم ، كأن اللحظة المرتقبة قد حانت. فقلت فى بساطة : إن ساستكم أضافوا إلى ما قلت أسباباً وجيهة أخرى : حماية مصالح الدائنين الأوربيين والأقلية القبطية والجاليات الأجنبية وامتيازات الأجانب وقناة السويس إلى حماية طرق المواصلات الإمبراطورية إلى الهند درة التاج البريطانى .

ها أنت ترى أننا نعلم كل الحجج والدوافع الاستعمارية .
ولكن شاعركم الأكبر «شكسبير» يقول : الاسم ؟ ماذا فى
الاسم ؟ إن الوردة وردة تحت أى اسم ! كذلك الاحتلال
والاستغلال والاستبداد والاستعمار كلها أسماء لشىء واحد
لا يقبله أى مواطن حر يحب بلده ولو كان هذا البلد جاهلا
فقيراً مريضاً متخلفاً ، كما وصف اللورد «كرومر» مصر .
فالحرية التى تدينون بها وتقدسونها وتستميتون فى الدفاع عنها
والحفاظ عليها هى أثمن شىء فى الوجود ، وبدونها تكون الحياة
عدماً . وهى الحق الطبيعى لكل فرد وكل شعب . فهل من حق
المعلم أن يمتلك التلميذ لأنه يعلمه ؟ وهل من حق الطبيب أن
يسرق المريض لأنه عالجه ؟ لقد قرر مؤتمر الصلح —
وإنجلترا مشتركة فيه — حق كل شعب فى تقرير مصيره .

وانبرى «حبيب» يقول : إن تاريخكم أنتم القديم والحديث
يسجل لكم أمثلة رائعة من البطولة والكفاح فى سبيل الحرية ،
ففى القرن الأول قبل الميلاد كانت الإمبراطورية الرومانية سيدة
العالم ومركز الحضارة ، وقوانينها ونظمها الإدارية والاجتماعية أرقى
ما يكون . وكانت بريطانيا فى ذلك الوقت جزيرة صغيرة مجهولة
فى بحر الشمال ومنقطعة عن كل معالم الحضارة وعاطلة من كل

مظاهر الرق ، وأهلها البريتون الأصليون بدائيون متوحشون شبه عرايا يعيشون على صيد البر والبحر . ويعبدون النار والأحجار والأشجار ، ويخضعون لسلطان الكهنة «الدرويد» ويقدمون الضحايا البشرية كزنوج أواسط إفريقيا ، وكانوا فى الحروب لا يعرفون سوى العصا والقوس والسهم ، وقوادهم يصبغون أجسادهم باللون الأزرق ويصيحون صيحات الحرب كالحيوانات الضارية، وما زلتم للآن تقولون إن الدم الأزرق يجرى فى عروق ملوككم . وفتح «يوليوس قيصر» جزيرتكم واحتلها الرومان فأنشأوا المدن وعبدوا الطرق وسنوا القوانين وأدخلوا معالم الحضارة لأول مرة ، ومع ذلك وقفت ملكتكم «بوديسيا» بفلول عصاباتها المسلحة بالأسلحة البدائية تحارب الرومان بفيالقهم المنظمة وأسلحتهم الجبارة . شبراً شبراً من أجل الحرية، ولو كانت حرية بدائية . وعندما كانت أسبانيا ملكة البحار والمستعمرات فى الشرق والغرب وأصبح أسطولها العملاق خطراً على ملاحتكم وسفن صيدكم جندتم سفن القرصان وجعلتم منها أسطولا تصدى لأسطول أسبانيا وحاربه بلا هوادة وسجل لكم التاريخ انتصاراتكم العظيمة على الأرمادا وفى جبل طارق والطرف الأغر . وعندما اعتدى «نابليون» على حرية بلاد أوربا واستعبد شعوبها ،

وكانت الحروب بعيدة عنكم لا تمسكم بسوء. ألبتم عليه الدول وحاربتموه وهزمتموه فى معركة «واترلو» ونفيتموه ، وحطمتم أسطورة الجبار الذى لا يقهر . وفى هذه الحرب الأخيرة التى كلفتكم الكثير من الأموال والأرواح والتضحيات حتى انتصرتم كان سبب دخولكم الحرب الدفاع عن حرية بلجيكا التى تعهدتم بحمايتها . وهكذا تحملتم من أجل حرية بلاد غير بلادكم . والدفاع عن الحرية الفردية والسياسية والاجتماعية فضيلة من أكبر فضائلكم . فلماذا تبررون اعتداءكم على حرية مصر . هل لأنها بلاد شرقية مسلمة وليست بلاداً غربية مسيحية مثل بلجيكا وبلاد البلقان التى حررتموها من الحكم العثمانى .

وتدخلت فى الحديث لأريح «حبيب» قليلا وقلت : كيف إذن نلام على الدفاع عن حريتنا واستقلالنا ، إننا لا نكره الإنجليز كشعب وأفراد ، ونحن على العكس نقدركم ونحترمكم لما وجدناه فيكم من صفات طيبة لمسناها ونحن فى بلادكم : رجولة وصدق وأدب وديمقراطية واحترام للرأى ، وحفظ الوعد وتمسك بالكلمة ، وإنما نكره السياسة الاستعمارية أيًّا كانت، ويبدو لنا أن ساستكم من طراز ومعدن آخر غير معدن الشعب البريطانى الأصيل . إن عرابى كان يعبر عن شكوى الشعب

والجيش من حكم الخديو الدخيل الفاسد وظلم الأتراك والشراكسة للفلاحين أصحاب البلاد الأصليين وتغلغل النفوذ الأجنبي ، وقام بثورة إصلاح وعدالة ، ولم يخطر بباله أبداً أن يتحرش ببريطانيا ويحاربها بجيشه القليل وموارده المحدودة وهى بأساطيلها الجبارة وجيوشها الجرارة ، فتحرشتم أنتم بنا وتدخلتم ظلماً وعدواناً بدون أى مبرر شرعى لتحموا عرش الخديو وبذلك ناصرتم الفساد والظلم وحاربتم الإصلاح والتحرر . والعالم كله يعرف أن حجة التدخل باطلة وأنها مجرد ذريعة لتحقيق الحلم الذى ظل يراودكم ألف عام منذ الحروب الصليبية التى قادها ملككم « ريتشارد قلب الأسد » وهو استعمار مصر والسودان ومد إمبراطوريتكم الإفريقية من القاهرة إلى الكاب كما تقولون . وقد تعهدت حكوماتكم المتعاقبة على اختلاف ألوانها الحزبية من أحرار ومحافظين لمصر وللدول وأقسمت بشرف التاج البريطانى أن الاحتلال مؤقت وسيعقبه الجلاء حتماً . وها أنتم بعد ستة وثلاثين وعداً وعاماً ما زلتم باقين ، بل زدتم على ذلك أن وضعتم مصر تحت الحماية ، وطالب بعض ساستكم ونوابكم فى مجلس العموم بضمها للإمبراطورية ، رغم وعدكم بضمان استقلال مصر بعد النصر فى الحرب وزوال السيادة العثمانية

الاسمية ، اعترافاً بجميلها وما قدمته من مختلف المعونات والمساعدات والأموال والتضحيات ، ولولاها لما تم للجنرال « أللنبي » فتح فلسطين وهزيمة الأتراك ، بشهادته هو نفسه ، ولولا الخوف من إثارة الدول الأوربية الاستعمارية الأخرى وتنازعها على مناطق النفوذ واقتسام الغنائم لابتلعتم مصر وجعلتموها مستعمرة بريطانية . وعندما طالبكم نواب الأمة ووفدها المفوض من قبل الشعب بإنجاز الوعد نفيتم الشيخ العجوز « سعد زغلول » زعيم الأمة إلى جزيرة « مالطة » وسلطتم جنودكم ببنادقهم ورشاشاتهم يحصدون أرواح المواطنين العزل ، رجالا ونساء وأطفالا ، وهم يعبرون عن رأيهم فى مظاهرات سلمية؛ بالله عليكم ماذا كنتم تفعلون لو أن ألمانيا انتصرت فى الحرب واحتلت بلادكم ، وادعت أنها أرقى منكم حضارةً ومدنية ، وأنها تحتل بلادكم احتلالا مؤقتاً حتى تتطوروا وتتقدموا وتتشربوا الحضارة الألمانية . هل كنتم تستكينون أم تحاربون بقدر ما تستطيعون أو على الأقل تتظاهرون كما نفعل نحن . فلماذا تحلون لأنفسكم ما تحرمونه على غيركم ، إن الشعب المصرى لا يفكر ولا يقصد بل لا يستطيع أن يحارب بريطانيا وجيش الاحتلال ويخرجه من مصر بالقوة ، ولكنه يقوم بمظاهرات

سلمية عزلاء يؤيد بها الوفد المصرى الذى يدافع عن قضية البلاد بالطرق المشروعة ويرفع الصوت عالياً لينبه الرأى العام العالمى إلى عدالة مطلبه وقضيته ، ومن يدرى فلعل صوت الأحرار الإنجليز الذين لا تخلو منهم بريطانيا يرتفع مدوياً ويحمل حكومتكم على تغيير سياستها الغشوم حيال مصر ، ولو فعلت لكسبت صداقة مصر والعالم الإسلامى . ولو تركت المظاهرات وشأنها لمرت بسلام لأنها مجرد تعبير عن حرية الرأى كما تفعلون فى « هايد بارك » . ولكن تصدى الجنود الإنجليز المسلحين للشعب الأعزل وإطلاق الرصاص والمدافع الرشاشة فى الشوارع بدون حساب وسقوط الأحرار والشهداء صرعى تحت أقدامهم هو السبب المباشر الذى فجر بركان الثورة .

ويبدو أن هذا الدفاع الحار أبجدهم فأطرقوا هنيهة ، وقطع « الباشا » حبل الصمت بقوله : يبدو أن مصادر معلوماتنا خاطئة لا تكشف الحقائق . قات : بل على العكس إنها تعرف الحقائق ، ولكنها تتعمد تضليل الشعب البريطانى لخدمة الاستعمار . فقال : أفهم مما تقول أن « سعد زغلول » زعيم الأمة له من كبر السن وعظيم مكانته وواسع خبرته باعتباره وزيراً سابقاً ووكيلا للبرلمان ما يضطره لتزعم الحركة وتحمل نتائجها ،

وأنتم شبان صغار السن وتنقصكم خبرته فلماذا قمتم بالدور الخطير الذى قد يعرضكم للمتاعب وأنتم فى أول الطريق ، فقلت : إن السن لا دخل له فى الموضوع وإنما المهم الإيمان بالوطن وحريته والثقة بالنفس والتمسك بالمبادئ القويمة . وقال « حبيب » فى تاريخنا القديم والحديث أمثلة عدة لبطولة الشباب فأمير طيبة الشاب « أحموس » تولى القيادة بعد استشهاد أخيه الكبير « كاموس » وطرد الهكسوس من مصر بعد أن احتلوها قرنين من الزمان . والشاب المصرى « مصطفى كامل » اهتزت منابر أوربا لخطبه ومقالاته وعدته إنجلترا خطراً عليها . و « الإسكندر المقدونى الأكبر » ألم يكن فاتح البلاد وسيد الدنيا وهو شاب صغير ؟! وأضفت أنا : وأنتم ألم تختاروا الشاب ابن الواحدة والعشرين « وليم بت » رئيساً للوزارة وكان من أفضل رؤساء الوزارات . و السيد « المسيح » عليه السلام ألم يبشر برسالة المحبة والعدل والسلام وهو فى الثلاثين . فربت « الباشا » على يدى وقال فى رقة وإعجاب : إن ثقافتكم الواسعة تسعفكم بالجواب السديد عن كل سؤال . لقد أفحمتمونا وكنا نجهل كل هذه الأمور ، وعذرنا أننا عسكريون علينا أن ننفذ أوامر السياسيين والحكام المدنيين ، أصابوا أم أخطأوا ، وأنا فخور

بمعرفتكما وأتمنى لو كنتما إنجليزيين. فقال «حبيب» : بالعكس نحن اثنان فقط ولديكم من أمثالنا الكثير ولكنا نكون نحن أسعد حالا لوكنتم أنتم مصريين . وضحكنا كثيراً لهذه المجاملة المتبادلة.

وطلب « الباشا » الشراب قبل الانصراف ، وجاء الساقى بالويسكى للرجال ونبيذ « البورت » للسيدتين. وأراد الساقى صب الصودا فى كأسى . فقلت : بل أفضل الماء ، ألستم تقولون إن الصودا الجيدة تفسد الويسكى الجيد . فضحك « الباشا » طويلا . وقال : حتى هذه تعرفها . وقالت السيدة العجوز : ولم لا ؟ حتى ملابسه إنجليزية . فأجبت : إنى أستورد ملابسى من إنجلترا لأنها جيدة ورخيصة .

والحقيقة أن الملابس الإنجليزية هذه لها قصة مخجلة لم أستطع أن أسردها لهم . فقد كان فى إنجلترا شركتان كبيرتان لهما عملاء فى مصر . إحداهما « جرونز آند لندلى » للملابس ، والأخرى « ليناريس » للأحذية . وكان العملاء يحصلون على عناوين الشبان المثقفين وخاصة رجال التعليم ، فيرسل وكيل الشركتين لكل منهم دفاتر بعينات الأقمشة وكتالوجاً للملابس وآخر للأحذية وأوراقاً خاصة بأخذ المقاسات . وكنا نجد الأقمشة والأحذية متينة ورخيصة . بل إن سعرها فى مصر

أرخص منه فى إنجلترا ذاتها. فنرسل الطلب بما نختاره وندفع جنيهاً واحداً عربوناً، وبعد قليل يصل طرد البريد وبه بدلة ومنديل ورباط رقبة وشراب من لون أو نسق واحد، ثم الحذاء. وندفع الباقى عند استلام الطرد ، ونتيجة كل هذا خمسة أو ستة جنيهات. ولم نكن نفطن إلى أن هذا كله كان جزءاً من مخطط اقتصادى استعمارى محكم لقتل الصناعة الوطنية ومنافسة المنتجات الأجنبية الأخرى . إلى أن جاءت ثورة ١٩١٩ ، قرر الوفد مقاطعة البضائع الأجنبية وخاصة الإنجليزية .

وقد شرحت لى زوجتى ، المربية العربية الجامعية الأولى المرحومة الأستاذة « نظلة الحكيم » الدور العظيم الذى قامت به المرأة المصرية فى ثورة ١٩١٩ . فالحركة النسوية التى بدأت بزعامة « صفية هانم زغلول » حرم « سعد باشا » و « هدى هانم شعراوى» زوجة « على شعراوى باشا » رأت من أول واجباتها بعد القيام بدورها الفدائى فى المظاهرات أن تساعد على تنفيذ قرار الوفد ، فانقسمت المدرسات والطالبات إلى جماعات ، وكانت زوجتى يومئذ طالبة بالمعلمات السنية . وتقوم كل جماعة بمحاصرة متجر إنجليزى – مثل « موروم » و « دافيس براين » و « روبرت هيوز » و « لندن هاوس » – ويمنعن كل مصرى

من الدخول احتراماً لقرار الوفد . وقد أفلست معظم هذه المحلات أو كادت تفلس نتيجة للمقاطعة.. وأكثر من هذا ، عند إعلان الإضراب العام لموظفى الحكومة ، كنّ يرابطن أمام أبواب الوزارات والمصالح الحكومية ومعهن سلال بها خبز وصندوق به قروش ، فإذا وقع فى أيديهن موظف متسلل وبخنه وقلن له : إن كان يريد أكلا فهذا هو الخبز ، وإن كان يريد فلوساً فهذه هى القروش ، فيخجل الموظف وينصرف.

وانصرفنا من فندق « كنراكت » بعد هذا الحديث المتشعب الممتع مشيعين بالإعجاب والتقدير . . ودعوناهم للشاى بالڤيلا غداً بعد الظهر ردّاً للزيارة ، على أن يحضروا بالملابس المدنية ، وفى الموعد المحدد ذهبنا للفندق بعربتى حنطور واصطحبنا « برنارد باشا » والسيدة والآنسة وضابطين آخرين فقط لأن البقية لم تكن لديهم ملابس مدنية ، وعند مدخل الحديقة الكبير وقف الجميع يتأملون الحديقة والڤيلا وطاحونة الهواء ، وقالت السيدة العجوز والدهشة تلوح على محياها : أنتم تعيشون هنا . قلت : نعم والحمد لله . فقالت : ما أسعدكم بهذا المكان الهادئ الجميل فإننا الآن فى قصر ريفى بإنجلترا . أؤكد أنكم أرستقراط ولو أنكرت ذلك . وألقوا نظرة جانبية على مائدة الشاى

التى أعدت فى الحديقة أكمل إعداد بالأدوات الفضية وطقم الصينى الفاخر والزجاج البلّورى والمفارش المطرزة فازدادوا دهشة وإعجاباً، والفضل مرة أخرى لعدوهم الجاسوس الألمانى « ف . ف » .

وذهبنا رأساً إلى الشرفة الكبيرة المطلة على الحديقة بمقاعدها الوثيرة وبعد أن جلسوا واطمأنوا حضرت والدتى تخطر على مهل من داخل الڤيلا ومعها شقيقتى وأخى « مصطفى » وهم جميعاً بالملابس الإفرنجية ، وكانوا صورة مشرفة للجمال الشرقى الأبيض ، فوقف الضباط وأحنت والدتى رأسها قليلا فى اتجاه السيدتين ، وحيتهم بالإيطالية والفرنسية ، فقدمتها لهم وقالت : هذه والدتى « مسز سعيد » تحييكم بالإيطالية والفرنسية لأنها لا تعرف الإنجليزية ، وأكملت التعارف . واقتربت أمى ومدت يديها للسيدة العجوز والآنسة وأحنت رأسها للباقين ، فقبلتها السيدة العجوز وأفسحت لها بجوارها وجلس أمامهما « حبيب » للترجمة، واحتضنت الشابة أختى وأجلستها بجوارها، وأخذت تتأمل جمالها وسألتها عن اسمها وصحتها فأجابتها بالإنجليزية ، وكذلك فعل « الباشا » مع « مصطفى » ولما أجابه بالإنجليزية على صغر سنه قال : والأولاد أيضاً يتكلمون الإنجليزية . مدهش جداً . فأجاب « مصطفى » بالإنجليزية . نعم يا سيدى نحن نتعلمها فى المدرسة

والبيت . فقالت السيدة العجوز: الآن آمنت أنكم أتقنتم الإنجليزية في مصر وليس في كمبردج، ولكني ما زلت لا أصدق أنكم مصريون.

وجاءت القهوة التركية فقلت : هذا هو التقليد المصرى للترحيب فى أول الزيارة ولكم أن ترفضوها إذا شئتم والشاى معد على كل حال فقال « الباشا » : بالعكس أنا أحب هذه القهوة التركية وأفضلها على « الجبنه » السودانية والقهوة الفرنسية . وقدمنا السجائر الإنجليزية والسيجار . وأرادت والدتى أن تشبع فضولهم فدعتهم للمرور داخل الڤيلا ، فجاسوا خلال غرف الاستقبال والكتب والطعام بالدور السفلى وغرف النوم بالدور العلوى حتى دورات المياه، وكان نظام الأثاث وترتيبه على أتم ذوق أوربى بطبيعة الحال. ثم خرجنا للحديقة لتناول الشاى، وقد زودناه بأنواع مختلفة من الحلويات الشرقية التى أقبلوا على التهامها بلذة وشغف.

ورأيت « الباشا » صامتاً يفكر تفكيراً عميقاً وعلى شفتيه سؤال حائر . فقلت له : أرى على وجهك سؤالا محيراً . فقال : الحريم. أين الحريم إذن ؟ فتصنعت العجب وقلت : ليس عندنا حريم « يا باشا » هذه أسطورة قديمة عفا عليها الزمن، نعم كان نظام الحريم موجوداً عندنا وربما عندكم أيضاً من زمن بعيد، ولكنه زال بعد أن تعلمت المرأة وخرجت للحياة. وها نحن أسرة مصرية

متوسطة متعلمة ، رجالا ونساء وأطفالا ، ونعرف لغة وبعضنا أكثر من لغة أجنبية غير لغتنا . فضربت السيدة العجوز المنضدة بيدها وقالت : إذن كل ما سمعنا وقرأنا عن مصر كذب واختلاق مخجل معيب. ولابد أن أطلع الناس على الحقيقة عندما أعود لإنجلترا.

وبعد الشاى وما دار فيه من أحاديث عابرة لحظ « الباشا » جزءاً من الحديقة معداً للعبة « الكروكيه » التى تلعب بالكرات الخشب ومضارب اليد ، وهى اللعبة المفضلة عند كبار السن الإنجليز . فقلت : تحب أن تلعب ؟ قال : بكل سرور وشغف . وتألف الفريق منى ومن والدتى و« الباشا » وأحد الضابطين . وجلست السيدة العجوز على كرسى وثير قرب الملعب للمراقبة . وكانت تصفق بشدة كالأطفال كلما أصابت والدتى المرمى وتهتف : تحيا المرأة المصرية . أما الآنسة والضابط الآخر فقد اصطحبا أختى وأخى لنزهة نيلية بالقارب . وعادت فقبلت الصغيرين وقالت : ليتنى آخذهما معى . فابتسمت وقلت : ولماذا لا تبقين هنا معهما على الرحب والسعة ؟

ولا أستطيع أن أعبر عما بدا عليهم من سرور وانشراح وحسن تقدير عند انصرافهم ، فقد قبلت السيدة العجوز والدتى عدة مرات واحتضنتها وكذلك فعلت الآنسة معها ومع الصغيرين

وانحنى « الباشا » انحناء شديداً لواللدى وشد على أيدينا بحرارة وقبل الصابطان يد واللدى . ورافقناهم حتى الباب الكبير للحديقة ، وقال « الباشا » هامساً فى أذنى : عن إذنك سأكتب « لأوين باشا » عن هذه الزيارة الممتعة وانطباعاتها فى نفسى ولن أنساها ما حييت . وركبوا العربات وهم يلوحون بأيديهم ومناديلهم ونحن نجاوبهم و واللدى تقول : أريفيدرشى . أى إلى اللقاء ، حتى تواروا عن الأنظار . واعتبرنا هذه الزيارة المتبادلة مكسباً عظيماً لنا وللقضية الوطنية .

وفى اليوم التالى أعددنا لهم باخرة تقلهم جميعاً مع نزلاء فندق « كتراكت » بناء على طلب « الباشا » لتنقلهم إلى السودان وسافروا بعد أن سددوا حساب الفندق بالكامل ودفعوا « البقشيش » السخى للخدم ، وقد حاولنا أن نمنعهم باعتبارهم ضيوفنا ولكنهم أصروا كل الإصرار . ورافقناهم إلى الشلال وكان وداعاً حاراً . وعاد « حبيب » إلى الفندق فوجدهم قد بالغوا فى تسجيل شكرهم وعظيم تقديرهم فى دفتر الفندق .

ولعلى أطلت بعض الشىء فى تسجيل هذه الأحاديث ولكنى قصدت أن أكشف عن العقلية الاستعمارية المضللة وأثر اللقاءات الشخصية فى كشف الغشاوة عنها .

٢٧ مارس ١٩١٩

فى ظهر يوم ٢٧ مارس ١٩١٩ كنا نجلس مع الأسرة إلى مائدة أعدت فى الشرفة الكبيرة السفلى المطلة على الحديقة لتناول طعام الغداء . وكان أخى الأصغر — وهو فى السابعة من عمره — يجلس بحيث يرى باب الحديقة الكبيرة. وكنت أضع مسدسى فى جيب السترة المعلقة فوق أحد الكراسى الخالية ، أما « حبيب » فكان لخوفه من الأسلحة النارية يحتفظ بمسدسه فى درج مكتبه ، وفجأة تسلل « مصطفى » من مقعده وأخرج مسدسى ووجهه نحو مدخل الحديقة وأطاقه ومرت الرصاصة بين رأسى أمى وأختى وخدشت أذن أختى خدشاً بسيطاً والحمد لله ، وصرخت الوالدة والأخت وأسرعت فقبضت على يده وانتزعت منها المسدس وألقيت به بعيداً على أحد الكراسى وسألته فى حدة : ماذا فعلت يا مجنون ؟ فقال فى ثبات وحزم : « شفت ضابط بوليس ينزل من عربة الحنطور ويدخل الجنينة ، وأنا أكره ضباط البوليس بتوع المدير » .

وكان ما رآه حقيقة فقد أقبل الحارس مهرولا وخلفه

ضابط بوايس لا أعرفه يمشى على مهل ، فأسرعت لمقابلته ، وبعد أن حيا وسلم أخبرنى أن المدير يدعونا لتناول الغداء فى منزله مع ضيوف كبار آخرين فاعتذرت بأننا على المائدة وقد بدأنا الطعام فعلا والأولى أن يشاركنا هو فيه . ولكنه أصر قائلا إن المدير أخر موعد الغداء لحين حضورنا والجميع ينتظرون بفارغ الصبر ، فقبلنا على مضض وركبنا معه ، والوالدة تنصحنا بعدم الذهاب . وركبنا معه عربة الحنطور . وعندما وصلنا لسراى المدير وجدنا كوكبة من فرسان البوايس المسلحين أحاطوا بالعربة ، وسرنا جميعاً مندفعين إلى سراى المديرية . وسألت الضابط المرافق عن تفسير هذا الإجراء الشاذ ، فقال : سوف تعلمون السر فى المديرية .

ودخلنا مكتب المدير فوجدنا وكيل المديرية واقفاً بجوار المكتب واجماً مهموماً، وأمر الضابط بالانصراف والتفت إلينا وهو فى شدة الأسف والأسى وقال : « عملها الرجل ، وأنا والله العظيم ثلاثاً حاولت معه كثيراً فلم أفلح وقد أمرنى بتنفيذ أوامر الإنجليز لأنه لا يجرؤعلى مواجهتكم بعد أن أقسم اليمين ، وأنا العبد المأمور . فقلت فى دهشة : إنجليز . أى إنجليز ، إنهم سافروا جميعاً إلى السودان مسرورين شاكرين . قال : ألم

يخبركم « سيد لبيب »؟ لقد وصلت باخرة مسلحة للشلال فى الفجر وفيها البريجادير « جريج — السير جريج حاكم أوغندة فيما بعد » على رأس كتيبة إنجليزية ، وكتيبة هندية على رأسها قائمقام هندى ، وكتيبة سودانية على رأسها القائمقام « شاهين » — السفاح قاتل الطلبة والنساء والأطفال فى مظاهرات القاهرة فيما بعد — والكتائب كاملة السلاح ببنادقها ومدافعها كأنها قادمة للحرب . وداهمونا فى الصباح الباكر وطلبوا المدير على عجل ، فاعترف لهم رغم اليمين التى أقسمها أنكم أشعلتم نيران الثورة بأمر « سعد باشا » و « الوفد المصرى » وهوّل لهم فى الأمر وقدم تقريراً رسم فيه صورة بشعة لأعمال التخريب التى قمتم بها وكيف اغتصبتم منه السلطة بواسطة الجيش ليبرر تخاذله وإفلات الزمام من يده . فأمر « البريجادير » بالقبض عليكم فوراً أنتم الأربعة أولا وتسليمكم له أسرى لمحاكمتكم أمام مجلس عسكرى برئاسته . وهم معسكرون الآن حول المحطة ، ونحن بانتظار بقيتكم ، وبعد قليل وصل — « الشيخ مصطفى » و « جبالى عبد النبى » مقبوضاً عليهما . وحضر ضابط إنجليزى معه سرية مسلحة فى لمح البصر وضع فى أيدينا القيود الحديدية (الكلبشات) . فقلت له بالإنجليزية محتداً : ما هذه

المعاملة الوحشية ، هل نحن مجرمون قتلة أووحوش مفترسة ؟ فارتج عليه ونظر إلينا فى دهشة كأنه لا يصدق أننا متعلمون نتقن الإنجليزية ، وقال : أنا آسف أشد الأسف ولكن هذه أوامر عسكرية والأوامر هى الأوامر كما تعلمون .

وساقونا سوقاً إلى المحطة والجنود الهنود والسودانيون مصطفون على جانبي الشارع والأهالى يقفون خلفهم فى وجوم وهم يهمسون : « الله ينصركم على أعاديكم . مع السلامة يا أبطال وبعوده إن شاء الله . ما تخافوش ربنا يحرسكم ، كلنا معاكم » وهناك فى المحطة أدخلونا غرفة خالية من كل شىء غير الباب ونافذة بها قضبان حديدية ومصاريعها مقفلة ، وأقفلوا الباب ، ونظر بعضنا إلى بعض ولم نجد ما نقوله . وأخذ كل منا يفكر فى صمت بما تمخضت عنه الأحداث المفاجئة وجلست على إفريز النافذة وجلس الباقون على الأرض .

وفجأة سمعت نقراً على الخشب خلف النافذة وصوتاً هامساً يقول : يا « مظهر » ، يا « مظهر » أنت سامعنى ، فقلت : نعم أنت الحكمدار — واستمر الهمس — « مفيش وقت نضيعه. أنا رايح الڤيلا حالا . فين الأوراق والسلاح » . وسمعه « حبيب » فاقترب منى وأشار بالنفى محذراً من الخديعة . وجال فى خاطرى

بسرعة البرق أنهم سيفتشون الڤيلا حتماً وسيجدون الأوراق والسلاح فلا يتغير الأمر إن كان الحكمدار يخدعنا وهو ما لا أصدقه بحال ، وإن كان صادقاً ومن المؤكد أنه صادق فخير . فقلت — مسدسى رميته على كرسى فى الشرفة السفلى ومسدس « حبيب » فى درج مكتبه والأوراق فى محفظة سوداء تحت الوسادة فى سريرى . . فاسأل والدتى ولأجل أن تصدق أنك رسولى قل لها : بأمارة « الله يحرسك يا ابنى يا مسخر» ، وهو دعاء جدتى التركية لى بالخير ولا يعرفه أحد سوى والدتى » ، وانقطع الهمس وسمعت صوت وقع حوافر الجواد يخف تدريجيًّا حتى انقطع .

وخشينا أن ينسونا فى هذه الغرفة الخالية وربما قضينا فيها الليل كله ، فأخذنا نطرق الباب بشدة ، وفتحه جندى هندى لا يعرف الإنجليزية ، فأخذت أشير إليه أننا نريد طعاماً وماء وفراشاً للنوم . فذهب وعاد ومعه جندى يحمل أربعة أرغفة بدون إدام وآخر يحمل جردل ماء بدون كوز وجردلا فارغاً للتبول ، فصرخنا فى وجوههم فحضر على صراخنا ضابط هندى وأمرنا بالإنجليزية أن نسكت فهذه أوامر القائد . وتركنا وأقفل الباب ، ولم نكن نتصور أن الوحشية تصل إلى هذا الحد . فأعدنا الكرة بخبط أشد وصوت أعلى ،

فعاد الضابط وهددنا بالعقاب الشديد إن لم نسكت ، وتصادف مرور ضابط سودانى برتبة أعلى تدخل فى الموضوع ، فتفاهمنا معه وقلنا : « هل يليق أن أساتذة مدرسين ورجلا من كبار تجار مصر والسودان وشيخ عربى وجيه مريض نعامل هذه المعاملة الوحشية من الهنود الكفرة ونحن مسلمون » . فذهب وعاد بعد قليل ومعه جنود سودانيون نقلونا إلى عربة البريد بالقطار ، وفيها أمكنة لاستراحة موظفى البريد تسمح بالجلوس والنوم ، ولكن جميع نوافذها ذات قضبان حديدية متشابكة . وجاءونا بخبز وبيض وجبن أبيض وتمر ، وبيتنا بالعربة مع الحرس السودانيين الذين تأثروا بما حكيناه لهم وقاسمونا الطعام والماء . وقبل أن أتهيأ للنوم ذكرت حادثة « مصطفى » والمسدس وحمدت الله عليها فقد رتب القدر الرحيم أن يطلق المسدس حتى ألقى به بعيداً ولو ظل فى جيب سترتى وضبطوه معى لكانت مصيبة كبرى ، ورب ضارة نافعة .

وأيقظونا فى الصباح الباكر ، وقمنا للصلاة بعد أن تيممنا لعدم وجود الماء الكافى ودعانا الجنود السودانيون لطعام الفطور وقدموا لنا خبزاً وشطة فاكتفيت بالخبز . وبعد قليل حضر ضابط إنجليزى وساقنا تحت الحراسة إلى أحد صالونات الدرجة

الأولى بالقطار . ومثلنا أمام مجلس عسكرى يتوسطه البريجادير « جريج » وعن يمينه ويساره قائمقام إنجليزى وآخر هندى و « شاهين » المصرى وضابط سودانى ومترجم سورى . فبدأ الرئيس يسألنا بالإنجليزية والمترجم يترجم بلغته الركيكة ، فتذكرت « حسنين فهمى » ودعوت له بالخير ، وقلت : يا سعادة الجنرال الرئيس . نحن الأربعة نعرف الإنجليزية وأنا وزميلى هذا « كانتاب » فنرجو أن توجه لنا الأسئلة مباشرة ونحن نجيبك رأساً ، فبهت الرئيس ودقق النظر فينا ، وقبل أن يوجه إلينا الكلام تدخل الضابط الهندى ، وقال فى سخرية : تعلمتم فى إنجلترا صاحبة الفضل عليكم وتثورون عليها . فأسكته الرئيس وسألنا عن الاسم والسن والمهنة ومحل الإقامة وقال : إذن فأنتم تفهمون معنى الثورة على الحكومة والخروج على النظام و . . . فقاطعه الضابط الهندى وقال : لا ضرورة لإضاعة الوقت ونحن على عجل والتقرير شامل لكل الوقائع والأدلة ثابتة ومعززة من الجهات الرسمية. وتداول الرئيس همساً مع بقية الأعضاء فوافقوا ، ورفع الرئيس الجلسة قائلا : إذن يرسلون إلى المعتقل ويبقون هناك معتقلين سياسيين إلى أن يبلغ إليهم الحكم بعد التصديق عليه من القيادة العليا ، وهكذا عقد المجلس

العسكرى وانفض بعد خمس دقائق ، بت فيها فى مصير أربعة من المواطنين الأحرار دون سماع أقوال أو دفاع أو شهادة شهود .

وعدنا إلى عربة من عربات الدرجة الثالثة فى حراسة السودانيين ، وأحسسنا بالقطار يتحرك فى غير موعده ، والنوافذ مقفلة فلم ندر إلى أين يتجه ، هل جنوباً إلى الشلال فالسودان أم شمالا إلى الأقصر ؟ وسألنا الجنود ، فقالوا إنهم أغراب لا يعرفون الطريق . وطال سير القطار فعرفنا أننا ذاهبون شمالا . وقف القطار . وكان الجوع قد اشتد بنا فاستأذنا فى فتح نافذة لعلها محطة نشترى منها شيئاً ، وكانت فعلا محطة « دراو » ، ونظرت من النافذة فرأيت على رصيف المحطة بعض الأهالى يتساءلون عن سر هذا القطار الذى وصل فى غير ميعاده وليس به ركاب ، ويظهر أنهم عرفونى فهتف واحد منهم : ثوار أسوان فقلت : نعم نحن الأربعة هنا ونحن جائعون عطاشى . . وسرعان ما أعطونا بدون مقابل كمية كبيرة من الخبز والبيض والجبن والدوم والتمر وقلة ماء . فشكرناهم وجعلناها وليمة شاركنا فيها الجنود فرحين . وحضر ضابط سودانى فرآنا جميعاً جلوساً نتناول الطعام فابتسم وقال : هنيئاً مريئاً . وكنا قد انتهينا من تناول الطعام وعاد الجنود إلى أماكنهم عندما حضر ضابط

إنجليزى نظر إلينا ملياً وأخذ يعدنا على أصابعه ـ واحد اثنين ثلاثة أربعة ، وهز رأسه وانصرف . وتحرك القطار شمالا وأخيراً وصلنا الأقصر فسلمنا السودانيون إلى سرية إنجليزية مسلحة دفعت بنا فى عربة مقفلة إلى المعتقل .

وكل ما أذكره عن هذا المعتقل أنه بيت كبير قديم من طابق واحد يبدو أنه كان لأحد الأعيان أو رعايا الأعداء ، يقع أمام ميدان صغير . وله باب كبير إلى كل من جانبيه نافذة كبيرة تطل على الميدان اليسرى منهما سمر على مصراعيها عوارض خشبية تمنع فتحها فى الداخل . ودخلنا فوجدنا ردهة فسيحة مبلطة على كل من جانبيها حجرة كبيرة ، اليمنى منهما يقيم بها الحرس ، واليسرى ذات النافذة المغلقة هى التى أعدت لنا . ووجدنا فى بابها ثقباً كبيراً مثلثاً يطل منه « الديدبان » . ووجدنا بها أربعة « عنجريبات » من الجريد على كل منها حشية خشنة ووسادة وبطانية صوف ، وعلى الأرض حصير ملون . وفى ركن من الغرفة حوض به حنفية وبالوعة . وهذا هو كل ما فيها . والردهة تؤدى إلى حديقة بها عدد من الأشجار وأقيمت فيها خيام للجنود . وفى جانب منها حفرت عدة حفر مستطيلة لقضاء الحاجة مكشوفة دون ساتر وفى الوسط مضخة ماء تصب

فى برميل كبير يستخدم للغسيل والاستحمام . وفى الجهة المقابلة بناء من طابق واحد لعله كان مكان الحريم ، وبه بعض الضباط الإنجليز .

ودخل علينا الحجرة ضابط إنجليزى مسلح وخلفه أربعة جنود مسلحين ، كأنها مظاهرة عسكرية ، وأخذ يعدنا بأصابعه كزميله فى القطار . وجس القيود الحديدية فى أيدينا ليتأكد من بقائها حيث هى . وتلا علينا عدة أوامر بلهجة عسكرية صارمة كما لو كنا جنوداً تحت السلاح : « أطيعوا الأوامر والزموا الهدوء ولا تحاولوا الهروب ولا تتصلوا بأحد من الخارج ولا تحادثوا الجنود ، ومن أراد الخروج لقضاء الحاجة عليه أن يطلب من الديدبان (إسكورت) أى حرس مرافق » . فقلت للضابط : اسمح لى . . هذا إجراء عنيف وحشى وسخيف أيضاً . وهذه القيود الحديدية كيف نبقى بها ليلا ونهاراً . أليست هذه الغرفة المغلقة تكفى لمنع أى محاولة للهرب ؟ وهل نستطيع أن نعتدى عليكم ونحن عزل وأنتم مسلحون ؟ إنا لا نريد أن نهرب حتى لو وجدنا الفرصة ، فنحن لسنا مجرمين . فقال ببرود : اسكت هذه هى الأوامر وعلينا وعليكم الطاعة والتنفيذ ، وجاءونا بصينية عليها شاى وبقسماط ولحم علب « بولبيف » وغير ذلك من

نفس تعيين الجنود .

وبعد قليل قلت « إسكورت » ففتح « الديدبان » الباب وجاء ثلاثة جنود مسلحين . وخلع رئيسهم حلقة القيد اليسرى من يدى وتوجهوا بى إلى الحديقة . فسألت عن دورة المياه فأشار إلى الحفر والمضخة ونظرت أمامى فرأيت منظراً اقشعر له بدنى . وجدت جنوداً نصف عرايا يجلسون القرفصاء فوق الحفر ، ويقضون الضرورة دون ساتر ويتحدثون ويتندرون ، وآخرين عرايا يغتسلون من البرميل الكبير ويتهارشون. والبعض الآخر فى أوضاع جنسية شاذة تحت الأشجار دون ماخجل أو حياء. وثارت طبيعتى على هذه الأوضاع ، فعدت دون أن أقضى حاجة أو أغتسل. وأخبرت صحبى بما وجدت ولزمت الحجرة فلم أطلب الخروج إلا إذا حصرنى البول . وأقللت الطعام إلى أقل حد ممكن وبقيت على هذه الحال أسبوعاً فأصبت بإمساك مزمن وآلام حادة . وعادنى الطبيب الضابط وعجب من أمرى بل سخر منى لأنى أرفض قضاء الحاجة مكشوفاً أمام الجميع وأنا رجل مثلهم . وأمر لى بحبة مسهل يسمونه « رقم ٩ » فاضطررت آخر الأمر أن أفعل كما يفعلون . واتسخت ثيابى الداخلية ونفذت منها رائحة العرق وبدأ القمل يظهر فيها فاضطررت لغسلها فى حوض الغرفة بكل

مشقة نظراً للقيد الحديدى وانتظرت حتى جفت . ونقص وزنى عدة كيلوجرامات بسبب إقلال الطعام تفادياً لعذاب قضاء الحاجة فى الحفر وأنا بطبعى ضئيل الجسم ليس لى رصيد من الشحم والدهن .

وقضينا على هذه الحال وقتاً من أشد وأقسى ما يكون ، لا نعرف مداه . ولم يكن لدينا ملابس داخلية أو خارجية للغيار غير ما علينا . وقد آذتنا القيود الحديدية أذية بالغة وحرمتنا النوم لما تحدثه أى حركة للأيدى والأذرع من ألم شديد : وأنكى من هذا أن ضابط النوبة كان يحلو له أن يفاجئنا بزيارات غير منتظمة فى أوقات القيلولة بعد الظهر أو قرب منتصف الليل ، فنصحو فزعين على قعقعة السلاح وخبط الأحذية الثقيلة بالأرض، ويعدنا على أصابعه ليتأكد من أن أحداً منا لم ينقلب فأراً يهرب من تحت الباب أو دودة تنساب من صنبور الحنفية إلى البالوعة . ثم يفحص القيود الحديدية . وحادثناه بالإنجليزية وذكرنا له أننا « كانتاب » ولكنه لم يفهم وهز رأسه ولم يجب ، ولعله ظنها اسماً لقبيلة زنجية متوحشة ، فعرفنا أنه غير متعلم . وكان كل ضابط أو جاويش نوبة يقوم بهذا التفتيش الروتينى المضحك نتقدم إليه بالشكوى ، ولكن لا حياة لمن تنادى .

وكنا لا نفهم منهم كلامهم لأنهم عوام لا يعرفون الإنجليزية الفصحى . بل إن بعضهم لا يعرف الكتابة والقراءة ، وأكثرهم تعليما من أتم المرحلة الإلزامية. لأن قانون التعليم الإلزامى الإنجليزى لا يطبق على الأطفال الذين يبعد محل إقامتهم عن أقرب مدرسة بأكثر من ميلين ، ولا أولاد المراكبية الذين يعيشون وأسرهم على ظهر المركب وهم يحملون البضائع عبر أنهار إنجلترا ، ومن ثم كان فى إنجلترا فى ذلك الوقت حوالى ٥٪ من الأميين . ومن الضباط أنفسهم أنصاف أميين التحقوا بالجيش النظامى كجنود عاديين ثم اشتركوا فى بعض المعارك فرقوا ضباطاً من تحت السلاح ، وتعرفهم من لغتهم وشواربهم الكبيرة .

وطلبنا من أحد ضباط النوبة الاتصال بذوينا للحصول على ملابس بدلا من ثيابنا التى بليت ، فقال إن الاتصال بالخارج ممنوع بتاتاً . وكنت إذا جن الليل وأطفئت الأنوار أنتزع القيود من يدى بسهولة نظراً لصغرها ونحافتها . وفى ذات ليلة استغرقت فى النوم ولم أشعر بضابط النوبة إلا وهو على رأسى . ولما رأى يدىّ خاليتين من القيود نظر إلىّ طويلا وهرش رأسه وفكر وتفتق ذهنه عن حيلة جهنمية وحشية ، وهى أنه أدخل إحدى الحلقتين فى الأخرى وأدخل يدىّ فيهما بالقوة فتسلخ الجلد

وصرخت من شدة الألم ولكنه لم يبال وبدا عليه السرور من نجاح حيلته .

وضقنا ذرعاً بهذا الجحيم وتملكتنا روح الثورة دون مبالاة بالعواقب وقررنا كخطوة أولى أن نضرب عن الطعام وتركناه كما هو . وعندما جاء الحارس ليحمل البقايا ورأى الطعام لم يمس أشار إلينا أن نأكل فأجبنا بالرفض فحمل الصينية وهو يبتسم ، وأغلب الظن أنه سر بهذه الوجبة الإضافية له ولزملائه الحراس . وبعد قليل أخذنا ندق الباب دقاً شديداً مزعجاً ونصرخ بأعلى صوت بالإنجليزية . نريد الضابط الكبير المسئول . ودخل ضابط النوبة مهدئاً لنا وقال : أرجوكم أن تسكتوا وتهدءوا وأعدكم بحضوره بعد أن تنتهى نوبتى . وقد صدق . فبعد انتهاء نوبته بقليل حضر يتقدمه ضابط إنجليزى برتبة بكباشى ، وخلفه الحرس المسلح وهم يصوبون البنادق نحونا كما يفعلون فى كل مرة .

ونظر البكباشى إلى الحرس وبنادقهم المصوبة ، ثم إلينا والقيود فى أيدينا ، والنافذة المغلقة والثقب المثلث فى الباب وتجهم وجهه وقال لضابط النوبة : « ما هذا ؟ لماذا كل هذا ؟ هل هم وحوش يأكلون بنى آدم وتخافون منهم ؟ وأنتم مسلحون وهم عزل أو هم فيران يخرجون من تحت الباب أو يتسربون من

البالوعة ، اخرجوا جميعاً » . وبعد خروجهم أقفل الباب وقال في هدوء : أخبرنى ضابط النوبة أنكم متذمرون وتضربون عن الطعام وتلحون فى مقابلتى فما شكواكم . وماذا تطلبون . وآنسنا من لغته ومسلكه أنه رجل مثقف وربما كان جامعيًّا وليس من ضباط الجيش النظامى القديم الخارجين من تحت السلاح . فقلت : أولا أنا وزميلى هذا « كانتاب » وكنا نلقى منكم فى بلادكم خير معاملة إنسانية كريمة ، فكيف تعاملوننا فى بلادنا هذه المعاملة الوحشية البربرية كأننا قتلة قطاع طرق . انظر إلى يدى وما فعل فيهما القيد الحديدى . وقال « حبيب » مكملا : إن هذه المعاملة وصمة عار فى جبين الإمبراطورية البريطانية . فبهت الرجل وجلس إلى أقرب « عنجريب » وأشار إلينا بالجلوس وبدأ يمطرنا بوابل من الأسئلة المتلاحقة : هل نحن حقيقة « كانتاب » وفى أى كلية درسنا وأى سنة وماذا درسنا ؟ فأجبته بقدر ما وعيته من حديث « حسنين فهمى » فسرح ببصره قليلا وهز رأسه كأنه يستعيد ذكريات الماضى وربت على يدىّ فى رفق وقال : وأنا أيضاً « كانتاب » وقد درست فى نفس الكلية وإنما قبلكم بسنين ، فنحن زملاء والزملاء لا يعاملون هذه المعاملة الوحشية ، ولكن هذه أوامر مديركم وحكومتكم ، وسأعرض

الأمر على « أوين باشا » فوراً ، فتحملوا يوماً أو يومين على الأكثر . فقلت : نحن مدينون بالشكر الجزيل للزميل الكريم النبيل لهذا الشعور الطيب ، ونرجو — لو استطعت — أن يتكرم « الباشا » بزيارتنا بنفسه لنعرض عليه الأمر ونوفر عليك مشقة العرض أو الشرح . فقال : سأبذل جهدى وأخرج علبة سجايره ووزعها علينا ثم أردف قائلا : وما هى طلباتكم العاجلة ؟ فأشرت إلى « العنجريب » وقلت هذا ، وإلى القيد الحديدى وقلت ثم هذا . والطعام الإنجليزى لا يناسب زميلى هذين . خاصة وأن « جبالى بك » مريض ويحتاج لطعام خاص . ونرجو الاتصال بذوينا لطلب ملابس جديدة نظيفة ، وشيئاً نقرؤه فقد نسينا القراءة والكتابة ، فضحك وقال : كلها طلبات بسيطة معقولة وسأذكرها « لأوين باشا » ونهض مودعاً ، وشد على أيدينا بحرارة فشكرناه أجزل الشكر ، ودعونا للزميل « حسنين فهمى » بالخير والعافية .

وقبيل ظهر اليوم التالى سمعنا من الخارج جلبة جنود تصطف وكركون سلاح ثم فتح الباب بقوة ودخل ضابط إنجليزى وقور فارع الطول ممتلئ الجسم مهيب الطلعة أدركنا أنه « أوين باشا » وخلفه البكباشى الإنجليزى وضابط النوبة

والحرس مشرعى السلاح على الوضع القديم تماماً . ولعل البكباشى الجامعى قصد هذا ليثير « الباشا » — ووقف « الباشا » فى وسط الغرفة وتطلع إلينا وإلى الحجرة والحرس وقيود أيدينا وملابسنا الرثة والشعور والذقون الطويلة التى لم تقص منذ الاعتقال ، وهاله منظرنا الكئيب وبدا على وجهه الامتعاض ، وأعاد النظر إلى الضباط وقال فى تهكم وتأنيب : لماذا كل هذه المظاهرة العسكرية ألا ترون أنهم عزل من السلاح . إنهم معتقلون سياسيون ومواطنون محترمون وليسوا مجرمين عاديين . ووجه إلينا الكلام فى صوت رقيق وقال : أنا شديد الأسف لهذه المعاملة غير الإنسانية ، ولا بد أن هناك خطأ ما . وأرجو أن تفهموا الوضع على حقيقته فلا تلوموا الضباط الإنجليز . وأؤكد لكم أن هذه تعليمات مديركم ممثل حكومتكم المصرية الذى شوه سمعتكم ، والسلطة العسكرية البريطانية ليست مسئولة عن هذا ولا ترضى به . ولكن مع هذا يظهر أننا أخطأنا فى التنفيذ وصدقنا أكاذيب الإدارة المصرية ، ولم نتعرف على شخصياتكم وأنتم مواطنون محترمون مثقفون . وقد أعطانى « برنارد باشا » فى خطابه لى صورة صحيحة عنكم وهو يشكركم أجل شكر على مسلككم معه ومع الضباط الإنجليز وأسرهم . ولا أقل من مقابلة الجميل بمثله . وعلى كل

سيتغير الوضع توا على نحو ترضون عنه كل الرضا . وبدأ يعطى تعليماته للضابط مدير المعتقل . وقال : اشكروا السلطة العسكرية البريطانية . وعدالة بريطانيا العظمى التى تعلمتم فى جامعاتها وعرفتم فيها طباعنا وأخلاقنا، وحيانا ثم خرج .

وما مضت ساعة حتى دخل البكباشى يتبعه عدد من الجنود يحملون أشياء كثيرة . وبدأ يفك القيود من أيدينا . وأخذ الجنود ينقلون « العنجريبات » وينصبون أسرة سفرية من أسرة الضباط بكافة مستلزماتها من حشايا ووسائد وبطانيات وملاءات وعلى كل سرير صابونة ومناشف . ثم خمسة كراسى ومنضدة متوسطة الحجم وأخرى صغيرة عليها أباريق مياه الشرب وكوبات . وقال : قد عينا لكم طباخاً مصرياً فاطلبوا منه كل ما تريدون من طعام وما يلزمكم من أشياء أخرى فى حدود المبلغ المخصص لكل منكم وهو جنيه ونصف يومياً ، وسيكون فى خدمتكم من الصباح المبكر إلى التاسعة مساء . وسيكون لكل منكم تعيين من السجاير والسيجار وهذه هى الدفعة الأولى . وأعطونى عناوين أهليكم بأسوان لنتصل بهم لطلب طقم واحد من الملابس يغير أسبوعياً . واطلبوا ما تشاءون من القهوة والشاى والطباخ تحت أمركم . وها هى مجموعة طيبة من الجرائد والمجلات والروايات

الإنجليزية ، أما الجرائد والمجلات المصرية فليس لدينا منها شيء وهى ممنوعة بطبيعة الحال ، ورجائى أن لا تحاولوا الاتصال بالخارج بأى وسيلة . أتريدون شيئاً آخر . أغلب الظن أن المدرس لا يستغنى عن الأقلام والأوراق والكتابة . فقلت : أصبت يا سيدى فأنا أحب دائماً أن أدون خواطرى ومذكراتى . ونحن عاجزون عن شكرك فنشكرك بكل قلوبنا قبل ألسنتنا . فأجاب : بل الشكر « لأوين باشا » والسلطة العسكرية البريطانية . وحيا وخرج .

ودخل على أثره الطباخ وقال : « ماذا تريدون لغداء اليوم والعشاء وفطور بكرة . اطلبوا ما تشاءون فهم سيدفعون كل النفقات مهما بلغت حتى ولو طلبتم ديكاً رومياً كل يوم » ، وأعطيناه التعليمات بخصوص أكلنا وأكل — « جبالى عبد النبى » ومواعيد القهوة والشاى . وحضر بعده الحلاق وأتم مهمته فى صمت ، ويظهر أنه نبه عليه بذلك . وكان البكباشى قد رخص لنا باستعمال دورة مياه وحمامات الضباط ، فهرعنا إليها نقضى الضرورة ونزيل أوساخ الأسابيع الماضية الطويلة . ولا أستطيع أن أعبر عن سعادتى بهذا الانتقال المفاجئ وخاصة بعد الاستحمام وتناول الغذاء الشهي والقهوة والاستلقاء على السرير . وقضينا يوماً

سعيداً وليلة هادئة هانئة نمت فيها نوماً مريحاً تتخلله الأحلام الطيبة .

وكنت قد بدأت بعد تناول العشاء ، تاركا زملائى يتسامرون وكأنهم لا يصدقون ما حدث ، فى كتابة مذكراتى عن الأيام الثلاثة الماضية ، وقصدت أن تكون بالإنجليزية توقعاً لاطلاعهم عليها ، وسجلت عظيم شكرى وتقديرى « للبكباشى » و « الباشا » ونوّهت بعدالة بريطانيا والسلطة العسكرية البريطانية . وكان حارس النوبة ينظر من ثقب الباب بين آن وآخر ويرانى مستمراً فى الكتابة ، ولعله أخبر الضابط المنوب وهذا بدوره أخبر « البكباشى » الذى حضر فى الصباح ليطمئن علينا . وبعد أن حيا وسألنا عن حالنا قال لى : بلغنى أنك كتبت شيئاً كثيراً بالأمس ولعلك كنت متعطشاً للكتابة . فقلت : هذا ما كتبته ويمكنك الاطلاع عليه . فبدأ يقرأ فى سره ووجهه يحمر رويداً رويداً وعلائم السرور تبدو على وجهه وقال : شكراً جزيلا لما ذكرته عنا ، واسمح لى أن أنسخ منه صورة أطلع عليها « الباشا » وقد تضم إلى تقريره عنى وتنفعنى .

وكان « البكباشى » يزورنا كل صباح للتحية ومعه السجاير والجرائد والمجلات وبعض الكتب الإنجليزية . وكنا — « أنا » و

« حبيب » -- نوزع معظم نصيبنا من السجاير والحلويات الشرقية التى يصنعها الطباخ على ضابط النوبة والحرس فيقابلونها بالشكر والامتنان ويسمحون لنا بالجلوس فى ركن الحديقة الهادئ النظيف أو نذهب إلى مبنى الضباط . ونقضى مع « البكباشى » فترات نتجاذب فيها أطراف الحديث عن « مصر » و « كمبردج » وشتى الموضوعات ما عدا السياسية . وقضينا أسبوعاً ممتعاً أنسانا شقاء الماضى وعذابه ، لولاانقطاع أخبار الأهل والوطن والثورة .

وقبيل آخر الأسبوع ، دعينا إلى مكتب « البكباشى » فحيانا ورحب بنا ودعانا للجلوس قال : قد طلبتم الاتصال بأهلكم واستجابت القيادة لهذا الطلب وسمحت لهم بإرسال طاقم ملابس يمكن أن يغير كل أسبوع . وكتاب عربى واحد ، والدواء اللازم لكن دون تبادل أية خطابات أو أوراق . واتصلنا فعلا بأهليكم حسب العناوين التى أعطيتموها ، وقد حضر أول رسول من أسوان الآن لكما أنتما الاثنين من حسن حظكما . ونادى الحارس فدخل ومعه « طه كحالة » ومعه لفافة كبيرة . وحاول « طه » أن يصل للسلالم فأمره بالوقوف حيث هو ، فسلمنا بالإشارة ، وقال بسرعة : العائلة بخير ويدعون لكم . وتناول الجندى اللفافة وسلمها « للبكباشى » ففتحه

وفتشها وقلب صفحات الكتاب ، وقال : هيا إلى الحمام لتعطوه الملابس القديمة ، وقولوا له أن يحضر بعد أسبوع ومعه الغيار الجديد ، ونحن نعطيه استمارات السفر والمصاريف النثرية . وكان فى اللفافة لكل منا بدلة وفانلة ولباس وشراب ومناديل ولكنهم نسوا الحذاء والطربوش ، فدخلنا الحمام وعدنا فسلمناه البدلة فقط أما الملابس الداخلية فكانت لا تصلح ولذلك ألقينا بها فى صفائح القمامة . وسلم « طه » وانصرف وشكرنا الضابط وعدنا إلى الغرفة . ورجعنا مرة أخرى سادة مهذبين . واستمر « طه » يحضر كل أسبوع حتى بعد أن تركنا المعتقل إلى مكان آخر . وبعد قليل حضر رسول أسرة « مصطفى قديس » ورسول فندق « جراند » بملابس « جبالى عبد النبى » .

وكان فى اللفافة كتاب فى الجبر العالى كنت أدرسه تعجبت لاختيار والدتى لهذا الكتاب بالذات . فلابد أن فيه شيئاً ، وقد كان . فبعد تصفح أوراقه وجدنا نصف صفحة مطبوعة وتحتها بخط والدتى الجميل كتابة كأنها تكملة للصفحة تقول — ولدىّ العزيزين « حبيب » و « مظهر » واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ، وإن الله مع الصابرين . نحن بخير . ردكما الله إلينا سالمين غانمين . الوالدة . وأعجبنا بهذه

الطريقة المبتكرة الفذة للتراسل . وأكمل « حبيب » الكتابة بخطه الجميل: « الوالدة العزيزة والإخوة الأشقاء . نحن بخير . المعاملة الآن حسنة للغاية فاطمئنوا » « مظهر » و « حبيب » .

وذات صباح دخل علينا « أوين باشا » بدون المظاهرة العسكرية وعلى فمه ابتسامة عريضة مشرقة وقال مبتهجاً : إظهاراً لشعورى نحوكم وأسفى على سوء معاملاتكم فيما مضى أمرت بنقلكم إلى جناح خاص بفندق « ونتر بالاس » حيث تتوافر لكم كل وسائل الراحة وتنسيكم ما فات . ولم نصدق آذاننا وألجمتنا الفرحة عن الشكر فلم نكن أبداً نتوقع مثل هذ التغيير ، بل لم نكن نحلم به . فندق « ونتر بالاس » الذى ينزل فيه الأمراء والعظماء وأصحاب الملايين مرة واحدة . ونقلنا فعلاً إلى الطابق الثانى بالفندق المطل على الحديقة الغناء . وخصصوا لكل منا غرفة مفردة كاملة الأثاث الفخم من غرف النزلاء . وتركوا باب الغرفة والنافذة المطلة على الحديقة مفتوحين ، ولكنهم وضعوا حرساً مسلحاً فى الطرقة المواجهة للأبواب وحرساً آخر فى الحديقة تحت النوافذ .

وحدث أثناء الانتقال حادث كاد يؤدى إلى كارثة لولا لطف الله . فأثناء صعودنا السلم كان كل جندى يحمل كيساً كبيراً

فيه أغراضه وصفيحة بسكويت كبيرة ، وبقيت واحدة ، وكنت أنا أحمل ربطة كبيرة فيها الكتب والمجلات والأوراق فأمر الجاويش « حبيب » أن يحمل الصفيحة الباقية . وعندما وصلنا إلى أعلى السلم كان « حبيب » قد تعب من حمل الصفيحة الثقيلة فأفلتت من يده إلى أسفل السلم ، ووقعت بجوار الجاويش وأحدثت دوياً هائلاً ، ولعل الجاويش ظن أنها ألقيت عمداً لقتله فأطلق رصاصة من مسدسه فى اتجاه « حبيب » ولم تصبه والحمد لله . وعلى دوى الصفيحة والرصاصة حضر الضابط صاحب النوبة مسرعاً وسأل الجاويش عن الخبر . ولما علم أنه أمر « حبيب » بحملها ، جمع الجنود فى الطرقة . وقال فى لهجة حازمة : اعلموا أن هؤلاء السادة ليسوا حمالين ولا خدماً وإنما هم معتقلون سياسيون عليكم أن تعاملوهم بكل أدب واحترام . والتفت إلينا وقال : هذه تعليماتكم : يرخص لكم بالخروج من الغرف ساعة فى الصباح لدورات المياه ، وتناول الإفطار معاً فى صالة الطعام ، وتناول القهوة فى الصالون الصغير ، وساعة لتناول الغداء ظهراً ، وساعة للشاى عصراً ، وساعة فى المساء للعشاء ، وفيما عدا هذه الأوقات تبقون فى غرفكم لا تبرحونها إلا لقضاء الضرورة مع أحد الحراس ، وممنوع قطعاً الحديث

مع الجنود والاتصال بالخارج ، وإذا أردتم شيئاً فاطلبوا مقابلة ضابط النوبة . وستطفأ الأنوار فى العاشرة مساء . والآن هيا إلى الحمامات وتناول الغداء . فشكرته وقدمت له صندوق سجاير فتقبله شاكراً لهذه الهدية الثمينة . وبعد انصرافه أعطينا كل جندى علبة سجاير ، وكان هذا بدء توثيق صلتنا بهم .

وبعد يومين جاءوا بأربعة معتقلين آخرين قابلناهم ساعة الغداء ، وعرفنا منهم : الأستاذ « حسين فهمى » المحامى بالأقصر ، والشيخ « موسى الأقصرى » الشاعر ، والشيخ « عبد المعطى الحجاجى » كبير آل سيدى الحجاجى بالأقصر ، والرابع أبيض الوجه ذو لحية مدببة (أمبريال) وكان صموتاً كتوماً يجلس بعيداً مطرقاً يسمع حديثنا ولا يشترك فيه ، وينصرف توًّا إلى غرفته قبل انتهاء الساعة المرخص بها . وحاولنا أن نستدرجه فى الحديث فلم نفلح وحسبناه جاسوساً أو أسيراً ألمانيًّا . واتضح فيما بعد أنه الأستاذ « عبد المجيد حسين » شقيق الدكتور « طه حسين » وقد اعتقلوه فى « كوم أمبو » .

وبعد العشاء دخلت غرفتى وأغلق الحارس الباب والنافذة ، وما انطفأ النور فى العاشرة حتى راودنى النعاس واستغرقت فى نوم عميق لم أتمتع به منذ أن قبض علينا ، ورأيت فى منامى أنى مع

أهلى فى الڤيلا ، وكأن شيئاً لم يحدث . وقمت فى الصباح منشرح الصدر ، وحمدت الله على هذه النعمة لولا العزلة والحبس الانفرادى . وهو أشق ما يكون على النفس ولو فى الجنة . وبعد طعام الإفطار وتناول القهوة دخل « الباشا » الصالون وانتحى بنا « أنا » و« حبيب » ناحية ، وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث . وقال فى نهاية الحديث : هل تطلبون شيئاً آخر . فشكرناه شكراً جزيلا . وخطر فى بالى خاطر مفاجئ كأنه إلهام من الله فقلت : نحن مسلمون ولابد أن نؤدى فريضة صلاة الجمعة جماعة ، كما تفعلون يوم الأحد فى الكنيسة . وليس من الضرورى أن نصلى فى جامع إذ نستطيع أن نقيم الصلاة هنا . فأجاب : لقد يسرت الأمر فطلب الجامع مستحيل . وطلب ضابط النوبة وأمره بإعداد الصالون الكبير لنجتمع فيه كل يوم جمعة من الساعة الحادية عشرة صباحاً إلى الواحدة بعد الظهر ، وبعد ذلك نتناول الغداء إلى الثانية .

والتأم جمعنا صباح الجمعة وأخذنا نتشاور فيما نصنع لإقامة الصلاة وقضاء هذا الوقت الطويل دون أن نثير الشكوك . واستقر الرأى على مسرحية طريفة أدت إلى خير النتائج فيما بعد وحولت مجرى الأمور إلى الأفضل . وهذا ما حدث تحت سمع ضابط

النوبة والجنود وبصرهم . جلس الشيخ « مصطفى » على مقعد عال وجلسنا نحن أمامه فى نصف دائرة متربعين على الأرض ، وبسطنا الأكف وأخذنا نقرأ الفاتحة وراء الشيخ بصوت رتيب ، ثم رفعنا أيدينا إلى السماء وصار كل منا يدعو الله بما يشاء ، وبين آن وآخر نقول : الله أكبر . الله أكبر . ثم خفضنا رءوسنا وأخذنا نتمتم بما يخطر فى بالنا من كلام . ونظرت خلفى إلى الضابط والجنود المصطفين أمام الباب فرأيت ملامح الخشوع والرهبة على وجوههم وكأنهم يتلون صلواتهم فى سرهم . وبعد فترة صمت طويلة وقف « الشيخ الأقصرى » وأذن للصلاة . وعلى أثر ذلك وقف الشيخ « مصطفى » متجهاً نحو النافذة الشرقية ونحن خلفه فى صف واحد مستقيم وبدأنا نصلى . الشيخ « مصطفى » يتلو الفاتحة وقل هو الله أحد و « الشيخ الأقصرى » يبلغ . وسجدنا فى الركعة الثانية وأطلنا السجود والدعاء ، وسلمنا . وعاد الشيخ « مصطفى » إلى الكرسى العالى ونحن جلوس أمامه وأخذ يلقى علينا درس الجمعة ، وهو قصة عن مغامراته فى « السودان » و « الحبشة » لا صلة لها بخطابة الجمعة وبشق الأنفس تمالكنا أنفسنا من الضحك من هذه المسرحية ، ولكن حديثه الشيق حملنا على الإنصات إليه بكل جوارحنا . وبقى من الوقت جزء

كبير ، فأخذ كل منا بالدور يحكى قصة أو حكاية أو يتحدث عن موضوع حيثما اتفق . وقبيل الساعة الواحدة تقدمنا بالدور وركع كل منا أمام الشيخ وقبل يده . والشيخ يمسح رأسه ويدعو له ، وقد تظاهرنا بالخشوع والورع . وقمنا خلفه لتناول الغداء .

وكان لهذه المسرحية أثر عميق فى نفوس الضابط والحراس بدا فى نظراتهم وعلى وجوههم ، فقد أحنوا رءوسهم للشيخ وسألوه البركة . وبعد الغداء اقترب منى الضابط وهمس فى أذنى : هل هذا الشيخ رئيس دينى كبير ، أسقف أو مطران مثلا ، وهل هذا لباس رجال الدين المسلمين ؟ فقلت : كلا فليس فى الإسلام كهنوت ولا وسيط بين الإنسان والله . وأى رجل مسلم يصح أن يقود الناس فى الصلاة ولو كان أقل منهم مقاماً ، فالإسلام دين الديمقراطية الصحيحة والمساواة . وقد اخترناه لأنه رجل صالح متصل بالله . فقال : هل يكشف البخت ويقرأ الكف ؟ قلت : ربما ، فالناس الصالحون يكشف الله الحجاب عنهم أحياناً . فقال : أكون شاكراً جداً لو قدمتنى إليه . فقلت : إن شاء الله فى فرصة قريبة .

وقد عنيت من أول الأمر بتوثيق الصلة بالضابط وأصحاب النوبة والحراس ، فكنت أعطيهم السجاير وأحجز لهم جزءاً من

الحلويات الشرقية . الكنافة والقطايف ولقمة القاضى — التى يصنعها الطباخ لنا ، فيلتهمونها بلذة عجيبة ، وأعطى الضباط المجلات والروايات ، وأقرأ للجنود المقالات وأشرحها وأعلق عليها ، ونقضى معهم فى الصالون الصغير وقتاً طويلا نتحدث عن مصر وتاريخها المجيد وحضاراتها ومعالمها . شيئاً فشيئاً بدءوا يتساهلون فى قيود الساعات المحدودة . وخشية التفتيش المفاجئ جعلوا حارساً منهم يقف أسفل السلم وآخر فى أعلاه وبمجرد أن يلوح القادم من كبار الضباط لناظر الأول يصفر لحن « تيبيريرى » الذى يعرفونه جميعاً ويترنمون به فى كل وقت لنهرع إلى الغرف والحراس إلى مواقفهم ، وإن كان هذا لم يحدث إلا نادراً ، وهكذا كان نهارنا يمضى مسرعاً دون سأم أو ضيق .

ولكن البلوى بعد أن ينطفئ النور فى العاشرة مساء ، وأنا لم أعتد النوم قبل منتصف الليل . وفكرت طويلا كيف أقضى هاتين الساعتين الطويلتين المملتين ، وقد تعبت من طول التفكير فى الموقف وتذكر الأحداث الماضية ، وما قد يأتى به المستقبل . وكنت قد قرأت فى إحدى روايات « دوماس » أن أحد أشراف فرنسا طال اعتقاله فى غرفته المنعزلة بسجن « الباستيل » دون محاكمة وهو لا يبرح مكانه ، وخشى على نفسه من جنون الوحدة ،

وأخذ يفكر فى طريقة يصرف بها ذهنه عن هذا التفكير فوجد بين أشيائه عدداً من الدبابيس أو الأزرار ، ولست أذكر تماماً ماذا كانت . فكان ينثرها فى أرجاء الغرفة المظلمة ثم يبحث عنها ويعدها حتى يكتمل عددها وينثرها مرة أخرى وهكذا حتى يغلبه التعب فينام . فقلت لنفسى سأجرب هذه اللعبة مستخدماً عشرين عوداً من الثقاب ونجحت . وابتكرت لعبة أخرى لقضاء ساعات النهار المنفردة فرسمت شكلاً هندسياً من أشكال المتاهات « بيت جحا » وصنعت كرات ملونة من الصوف انتزعتها من أطراف السجادة . وسميتها — الصليب الشرقى — وعلمتها « لحبيب » . وكنت بهذا أقضى وقتاً هادئاً طيباً ألاعب فيه نفسى بعد أن أمل الكتابة والقراءة . وهكذا لم تخل الحياة فى « ونتر بالاس » من طرائف رغم الحبس الانفرادى والقلق على المستقبل .

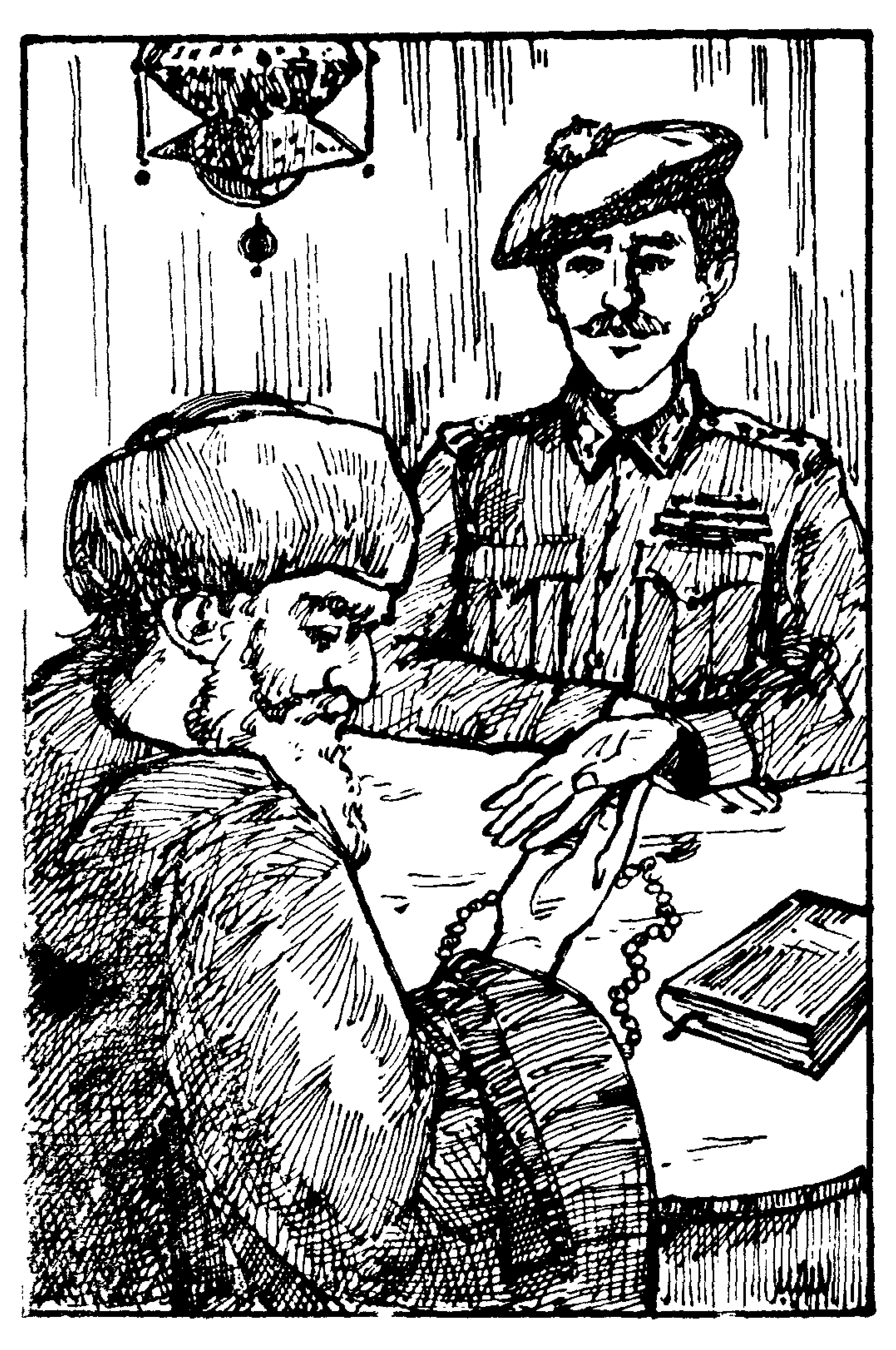
وجاء الضابط يزورنى فى حجرتى ويذكرنى بوعدى له بتيسير مقابلة الشيخ .

وتطرقنا إلى الحديث عنى وعنه . فعرفت أنه كان طالباً جامعياً لم يتم تعليمه لأنه تطوع فى أواسط الحرب ، وله الآن

ثلاث سنوات خارج إنجلترا . وهو يتحرق شوقاً للعودة . فله خطيبة من بنات عمه اسمها « فيوليت » وكانا يتبادلان الحب وتواعدا على الزواج بعد التخرج . وهما يتراسلان . ولكن طالت المدة وهو يخشى أن يحملها أهلها على الزواج من قريب آخر كان ينافسه . وأرانى صورتها وبعض خطاباتها . وذكر لى أوصافها . وكانت حقاً جميلة كاسمها . . وكان جاويش الحرس يستمع لحديثنا خارج الباب . فجاءنى بعد انصراف الضابط ورجانى بدوره أن أقدمه للشيخ فوعدته خيراً على أن لا يخبر أحداً من الحرس . ودعوته للجلوس وقدمت له السجاير وسألته عن حاله . وبكل بساطة وسذاجة الرجل الإنجليزى العادى ذكر لى أنه كان حلاقاً فى « شفيلد » وله مزرعة صغيرة للخضر وبها بقرتان . وينوى بعد عودته أن يتزوج خطيبته « دوروثى » ويقيم بالمزرعة لتربية الدواجن والبقر .

وفى ساعة الإفطار فى اليوم التالى انتحيت بالشيخ «مصطفى» جانباً بعيداً عن بقية الزملاء وشرحت له الموضوع . واتفقنا على ما يقول لكل من الضابط والجاويش بلغته الإنجليزية البسيطة و« حبيب » يكمل الترجمة عند اللزوم وأجلس أنا بعيداً حتى لا يظن أحد منهما أنى حدثت الشيخ بشأنه . وبعد

الإفطار قلت للضابط : ولو أنه مشغول بتأملات الصباح الروحية إلا أنه يسمح بمقابلته فى الساعة الحادية عشرة. وحددت الساعة الثانية عشرة للجاويش . وظل الضابط يروح ويجىء وهو على أحر من الجمر انتظاراً للموعد المحدد ، وإذا تعب من قطع الطرقة الطويلة ذهاباً وإياباً يدخل غرفته ليرتاح قليلاً ثم يعود . وفى الموعد المحدد أسلمته « لحبيب » فدخل معه غرفة الشيخ بعد أن نبهه لأن يفعل كما يفعل هو . وتقدم حبيب متأدباً وخلفه الضابط ، وركع أمام الشيخ ، وقبل يده . وكان الشيخ يجلس إلى كرسيه ويتمتم بكلام خافت ، ثم تطلع إلى وجه الضابط الراكع ، وهز رأسه مرتين ومسح بيده على رأس الضابط وجبينه ، وأمسك بيده وتأمل خطوطها . ومرّ عليها بأصبعه وابتسم وقال فى هدوء: تركت الكتاب وأمسكت المسدس، ولبست بدلة الكاكى بدل روب الجامعة . وسكت قليلا حتى يبلع الضابط ريقه من دهشة المفاجأة . واستمر الشيخ يقول : لعلك حسبتها مغامرة أو نزهة قصيرة لترى الدنيا وتزين صدرك بالشريط الملون والنيشان . والآنسة الحلوة التى تنتظرك هناك ما ذنبها . إنها زهرة جميلة كاسمها « روز » . « ليلى » . « فيوليت » . فدهش الضابط ، وفغر فاه ، فابتسم الشيخ وقال مطمئناً له : لا تخف



الشيخ يقرأ كف الضابط الإنجليزى

ولا تقلق ستعود سالماً ، وتقطف الزهرة وتظفر بالنيشان والشريط الملون . انتهى الكلام . فقبل الشاب يد الشيخ مراراً والدموع تترقرق فى عينيه ، وحياًانا ومضى وهو يحلم بالمستقبل المشرق .
وجاء دور الجاويش وفعل مع الشيخ كما فعل الضابط . فنظر إليه طويلا وابتسم وقال : يجب أن تنحنى أمامى وهناك فى بلدك تنحنى لك رؤوس من هم أعظم منك تلعب فى شعرها وذقنها كما تشاء ، وتحصل على الشكر والمال . عجيب جداً . لماذا تركت المقص والمشط وأمسكت البندقية والرشاش . هناك كنت تخاف من نقطة الدم والجرح البسيط وهنا تضرب بالرصاص وتسفك الدم وتقتل . ماذا لو بقيت هناك ترعى فى مزرعتك الصغيرة وتتزوج البقرة الثالثة الجميلة خطيبتك «دوروثى»؟!
اطمئن ستعود إلى مزرعة جديلة بها أربع بقرات وتتزوج البقرة الجميلة وتنجب لك أربعة أولاد يملأون المزرعة هناء وبركة .
انتهى الكلام . وخرج الجاويش مشدوهاً وهو يقول : قديس . قديس . ولحسن الحظ انتهت هذه المسرحية الثانية بنجاح منقطع النظير .

ولسوء الحظ انتهت أيام « ونتر بالاس » الجميلة ومرت كالحلم أو طيف الخيال . فقد صدر الأمر بإخلاء « ونتر

بالاس » للقيادة . ونقلنا إلى معتقل « ميث سنجر » وهو بيت قديم كان يملكه أحد رعايا الأعداء وبه حديقة كبيرة غير مهذبة تطل على النيل وبها سلاملك من غرفتين كبيرتين لليمين واليسار ودورة مياه ، وخلف السلاملك فناء خال كبير مكشوف يليه بناء آخر من دور واحد مخصص للضباط . وأسلمونا لكتيبة إنجليزية أخرى ووضعونا جميعاً فى غرفة السلاملك اليمنى والحرس فى الغرفة المقابلة اليسرى . وفرشوا لنا على الأرض مراتب فوقها بطاطين . وتغير الحال تماماً ؛ فامتنع حضور رسول الأسرة والسجاير والجرائد والمجلات وعاد الطعام إنجليزياً من تعيين الجنود . وسمحوا لنا بالجلوس فى الحديقة ساعتين كل صباح . وهناك كانوا يجيئون لنا بالشاى والبقسماط . وطلبنا القهوة فرخصوا لنا ولكنهم كانوا لا يعرفون صنعها . ومن المضحك أن القهوة جاءت أول يوم باردة ولا طعم لها فرددناها . وحضر على التو ضابط النوبة ، وبدا من شكله وكلامه وشاربه الكث الكبير والوشم الأزرق على صدره وذراعه أنه كان جندياً فى جيش المستعمرات النظامى ورقى من تحت السلاح . وقال فى غطرسة وغضب بلهجته العامية : عندما طلبتم القهوة كان رجاء ولكنى بعد أن أجيب الرجاء أصبح أمراً عسكرياً يجب تنفيذه، وعادت

القهوة فشربناها والجنود وقوف على رؤوسنا بسلاحهم والضابط يبرم شاربه . ويقف وقفة المنتصر ، فكانت سماً زعافاً .

والنكتة الثانية أنهم جاءوا برجل صعيدى عملاق من عامة الشعب لا نعرف عنه شيئاً ولا نختلط به ولا يشاطرنا الغرفة فلم نكن نراه إلا وقت الحديقة . وكان يجلس بعيداً عنا واضعاً رأسه بين كفيه . ويغنى مواويل صعيدية بصوت أجشّ منفر . وبين الحين والحين يحك رأسه وجلده كأن الحشرات تأكله . ولاحظ الجاويش ذلك وسألنا : ماذا يفعل هذا الحيوان ؟ فقلت : يظهر أنه فى حاجة إلى حمام ساخن . فقال : حقاً إنه قذر وفى حاجة إلى أكثر من حمام . ولكن ما العمل ؟ إنه لا يمكن أن يدخل الحمام . فقلت ساخراً : ها هو النيل كله أمامه فليستحم فيه . أنزلوه فيه وأعطوه صابونة وفوطة . فهرش الرجل رأسه وأخذ يفكر وحمل كلامى على محمل الجد ونفذ الفكرة بأسلوب ساذج مضحك لا يخطر على البال . فقد ذهب وعاد ومعه حبل طويل متين وحارسان مسلحان بالبنادق ، وجرّد الرجل من ثيابه كلها كما يفعلون هم أنفسهم ، ولف الحبل تحت إبطى الرجل العملاق وأمسك بطرفه وقال : قل له أن ينزل النيل ويستحم بهذه الصابونة ويغسل ملابسه القذرة ، وأنذره

إذا حاول العوم بعيداً أو الغطس أو الهرب فسيطلق الحارسان عليه النار فى المليان . وضحك العملاق طويلاً ونزل إلى الماء وأخذ يعوم وهو يرفع عقيرته بالغناء إعلاناً عن سروره بهذه المتعة التى كان يتوق لها . وكلما ابتعد عن الشاطئ جذب الجاويش الحبل وصفر له . وجلس على الشط وأخذ يغسل ملابسه ، وطلع إلى الحديقة عرياناً ووجهه يطفح بشراً ونشر ملابسه على الشجرة حتى جفت ، ونحن نضحك من سذاجة الرجلين .

وحدثت المسرحية الثالثة وكانت فى هذه المرة غاية فى الجرأة والخطورة . فقد حلت فى الحراسة كتيبة سودانية محل الإنجليزية . وكان الضابط الإنجليزى لا يعرف العربية والسودانى لا يعرف الإنجليزية ، ويبدو أنهما ضابطان من تحت السلاح . وبدت مشكلة الترجمة ، والكتيبة الإنجليزية على عجل لتلحق بقطار أسوان والوقت لا يتسع للاتصال بالقيادة لإرسال مترجم من جهتها . فاضطر الضابط الإنجليزى أن يلجأ إلينا ، وتطوع « حبيب » للقيام بالمهمة ، وجعله الضابط يقسم اليمين على الترجمة بدقة وأمانة . وهنا بدأت المسرحية الجريئة الخطيرة التى مثلت بدون سابق تحضير أو إعداد . قال الضابط الإنجليزى للسودانى : هؤلاء معتقلون سياسيون وليسوا مجرمين عاديين

مسجونين ، ما عدا هذا (وأشار إلى الرجل العملاق) واستمر إلقاء الأوامر بالكلام والإشارة والترجمة العربية على النحو الآتى :

الضابط : هؤلاء المعتقلون يبقون بهذه الغرفة ويتجولون فى هذا الجناح ولا يتعدونه إلى جناح الضباط (وأشار إلى الجناح الآخر وحرّك سبابته يميناً ويساراً علامة النفى) .

حبيب : هؤلاء المعتقلون ينقلون فوراً إلى جناح الضباط ولا يبقون بهذه الغرفة .

(وحرّك سبابته كما فعل الضابط ، وهزّ الضابط السودانى رأسه علامة التفهم)

الضابط : يتريضون فى الحديقة ساعتين فقط فى الصباح (وأشار بإصبعه للحديقة) .

حبيب : يتريضون مرتين فى الحديقة صباحاً وبعد الظهر (وأشار بإصبعه كالضابط) . وسلم الضابط الإنجليزى على السودانى وشكر « حبيب » وانصرف مع كتيبته . وتغيرت الحال فصرنا نحن الضباط وهم المعتقلون وازدادوا احتراماً لنا وتفانوا فى

١٣ يونية ١٩١٩

فى حوالى التاسعة والنصف من صباح يوم ١٣ يونية ١٩١٩ حضر الضابط السودانى واستدعانا نحن الأربعة دون سائر المعتقلين إلى المكتب . وهناك وجدنا « أوين باشا » بملابسه العسكرية ونياشينه . وكان متجهماً على غير عادته . ومعه ضابطان إنجليزيان آخران وحولهم حرس مسلح . وبدأ يتلو أسماءنا واحداً واحداً بصوت تبدو فيه شدة التأثر . فأحسسنا فى الجو خبراً مفزعاً رهيباً . وقال : لقد كلفت بمهمة شاقة على نفسى . ويؤسفنى أن أبلغكم أن المجلس العسكرى كان قد أصدر حكمه فى قضيتكم من مدة وأمرنى بتنفيذ الحكم فى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم وقد أخفيت الحكم عنكم طوال هذه المدة حتى لا أنغص عليكم حياتكم قبل موعد التنفيذ ولهذا السبب نقلتكم من المعتقل إلى فندق « ونتر بالاس » وحرصت على راحتكم وإجابة مطالبكم بقدر ما تسمح به الأوامر ، بل إنى تخطيت هذه الأوامر فى بعض الأحيان تحت مسئوليتى إلى أن أمرت القيادة بنقلكم إلى هذا المعتقل . فهل تطلبون شيئاً خاصاً أو تكتبون لأهلكم فى أسوان . وفجأة صرخ

« جبالى عبد النبي » ونفث دماً غزيراً من صدره ووقع على الأرض وقال : تنفيذ حكم . . . . ورغبة أخيرة . . ورسالة . . هذا إعدام ياولاد إعدام . . ولا حول ولا قوة إلا بالله . وصيتك بنتى « فاطمة » يا « مظهر » . هناك فى « الفيوم » أشهد أن لا إله إلا الله . وراح فى غيبوبة . وحضر الجنود فوراً بمحفة ونقلوه إلى المستشفى العسكرى . وتوفى بعدئذ مجاهداً شهيداً .

وخرج الضباط وساروا إلى باب المعتقل . ونحن وراءهم نسير بدون وعى كالإنسان الآلى . ووجدنا على طول الشارع موكباً عسكرياً فى مقدمته جوقة عسكرية موسيقية إنجليزية . يليها أربعة بغال يحمل كل منها مدفع ميدان صغيراً . ويحرسها الجنود الهنود ، ثم كتيبة إنجليزية تليها كتيبة سودانية . وبنادق الجميع منكسة ووضعونا فى وسط الموكب . وبدأت المسيرة والموسيقى تعزف لحناً جنائزياً « مارش الموت » والجنود يسيرون بنصف خطوة .

ويبدو أن الخبر انتشر فى المدينة فقد وقف الرجال فى جانبى الشارع على طول الطريق . وبعضهم يقرأ الفاتحة ويرفع يديه بالدعاء . وبعضهم يهمس بعبارات : إنا لله وإنا إليه راجعون . الله معكم يا أبطال يا أحرار . الله المنجى . أحياء عند ربهم يرزقون . ومن ورائهم النساء بثيابهن السوداء والزرقاء تتساقط

دموعهن ويكتمن زفراتهن .

وسار الموكب مخترقاً شوارع الأقصر من المعتقل إلى المحطة ثم فندق « ونتر بالاس » وكنت طول المسير فى حالة ذهول وقف فيها التفكير . وتخيلت أن جسمى سقط منى على الأرض . ورأسى تضخم كالبالون ، وارتفع فوق رؤوس الناس ، وأخذت ألقى على الجماهير المحتشدة خطبة ثورية بصوت كالرعد : « أيها المواطنون يا أبناء وادى النيل الخصيب الجميل ، ذى المجد الأثيل والتاريخ المجيد الطويل ، لقد قمنا بالثورة من أجلكم وأجل أولادكم وأحفادكم من بعدكم لنرد إليكم حريتكم واستقلالكم ونحميكم من الاحتلال والاستغلال ، وضحينا بشبابنا الغض ودمائنا الزكية وأرواحنا الطاهرة ، فداء لهذا الوطن العزيز الكريم ، ولعلكم أدركتم الآن أن هذه المظاهر العسكرية ليست إلا إنذاراً لكم بأن مصيرنا اليوم سيكون مصير الثوار الأحرار فى الغد . ولكن لا تيأسوا ولا تضعفوا واصبروا وصابروا وجاهدوا فى سبيل الله والوطن ، والموت أشرف ما يكون فى ميدان الجهاد والفداء وبذل الأرواح والدماء . والذين يقتلون فى سبيل الله ليسوا أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » . ووجهت كلامى للحرس بالإنجليزية : أنتم أيها الإنجليز . أيها القرصان الصليبيون . عشرة قرون مضت وأنتم تحاربون العرب

والإسلام . ولطالما أغرتم على مصر وغزوتموها وبالخيانة والخديعة دخلتموها ، ولكن ما تكادون تستقرون وتستعمرون حتى تهزمون وتطردون . لقد فشلت ثورة عرابى وقد تفشل هذه الثورة ، ولكن لا بد من يوم . قريب أو بعيد . يهيئ الله فيه لمصر نفراً من صميم أبنائها ومن شبابها الثوار الأحرار . يعيدون الكرة . ويشعلون الثورة ويطردونكم شر طردة وترحلون بغير رجعه . ونحن فى عليين نرقب يوم النصر . يوم المجد والفخر . فالدماء التى أريقت والأرواح التى أزهقت لن تذهب فى الأرض هباء . وجزاؤها عند الله فى السماء . ولكن أذناً واحدة لم تسمع هذا النداء فقد كان مجرد أفكار هائمة فى العقل حائمة فى الخيال . ولكنها لم ينطق بها اللسان ولم تخرج من الفم .

وعدت فجأة من سبحتى فى عالم التهيؤات إلى دنيا الحقيقة المرة والواقع المؤلم . على أثر شعورى بحركة وقوف ونداءات عسكرية وقعقعة سلاح وعزف الموسيقى العسكرية بالسلام الملكى البريطانى . وتلفت حولى فوجدنا فى وسط شارع النيل أمام « ونتر بالاس » وعلى رصيف النيل المقابل أقيمت منصة عالية جلس فى وسطها « أوين باشا » وبجواره يميناً ويساراً لفيف من العسكريين الإنجليز والهنود والسودانيين . وإلى الجانبين صفوف من المقاعد

جلس عليها كبار الموظفين والأعيان والتجار . وكأنّ على رؤوسهم الطير . وخيم على المكان صمت القبور . وفوق المنصة رفع العلمان الإنجليزى والمصرى . ووقف « الباشا » وأدى التحية العسكرية لنا كما تقضى تقاليد النفاق . وتلا علينا بالإنجليزية أحكام المجلس العسكرى . وتلا الضابط السودانى ترجمتها بالعربية فى بوق مكبر للصوت ليُسمع الحاضرين والأهالى الوقوف. وهذا ما أذكره منها :

« حكم المجلس العسكرى البريطانى المنعقد فى ٢٨ مارس ١٩١٩ بمدينة أسوان برئاسة البريجادير . . وعضوية . . لمحاكمة المعتقلين السياسين المذكورين بعد وهم (الأسماء الأربعة) رئيس وأعضاء اللجنة التنفيذية العليا لما يسمى المجلس الوطنى للثورة بإقليم أسوان . وقد ثبت من تقرير السلطة المصرية المحلية أنهم ارتكبوا الجرائم الآتية عن عمد وإصرار وسابق تدبير :

١ — قاموا بالدعوة لثورة على الحكومة المحلية ، وسمموا أفكار الأعيان والتجار والموظفين والطلبة ودفعوهم للخروج على النظام العام ، وألفوا ما أسموه بالمجلس الوطنى الذى حاول تولى الحكم المحلى ، ونحوا الحكام الرسميين عن مناصبهم واغتصبوا سلطتهم بطرق غير مشروعة .

٢ — قبلوا أن يكونوا نواباً عن هيئة ثورية غير شرعية تدعى « الوفد المصرى » بالقاهرة وممثلين لها بمديرية أسوان .

٣ — دبروا ونظموا وقادوا مظاهرات عدائية ضد الحكومة مما أدى إلى اضطراب الأمن وتفشى الفوضى ، وما نجم عن ذلك من إتلاف وتخريب للممتلكات العامة والخاصة .

٤ — خالفوا عمداً أوامر السلطة العسكرية البريطانية القاضية بالإخلاد إلى السكينة والتزام النظام .

٥ — اعتقلوا بعض ضباط جيش حضرة صاحب الجلالة الإمبراطورية وأسَرِهِم واحتجزوهم بفندق « كتراكت » بأسوان وحددوا إقامة المهندسين والموظفين الإنجليز فى مستعمرتهم بمنطقة خزان أسوان .

٦ — نادوا بسقوط الحكم القائم وحكومة حضرة صاحب العظمة سلطان مصر الذى أقرته حكومة بريطانيا العظمى متحدين بذلك السلطة العسكرية لقوات الاحتلال .

وبما أن العقوبات التى نص عليها القانون العسكرى الإنجليزى لهذه الجرائم تتراوح بين الحبس ستة شهور والإعدام ، ومجموع أحكام الحبس والسجن مع الأشغال ٦٥ سنة ، فإن عدالة حكومة حضرة صاحب الجلالة ملك المملكة المتحدة وإمبراطور الهند ،

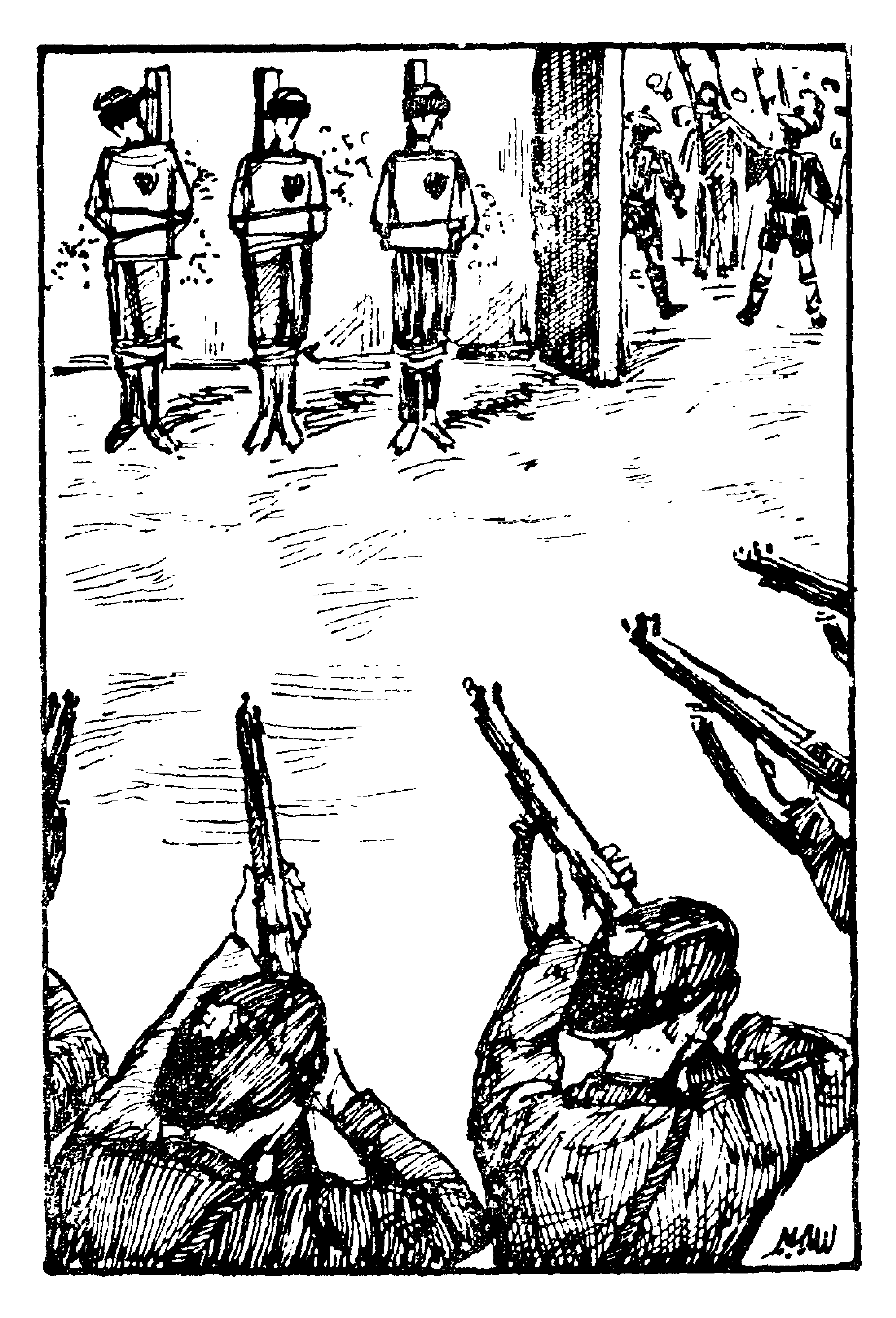
ومستعمرات ما وراء البحـــار : حفظه الله . ومراحم الحاكم العسكرى العام وقائد جيش الاحتلال رأت التجاوز عن أحكام الحبس والسجن اكتفاء بعقوبة الجريمة الأولى وهى الإعدام رمياً بالرصاص فى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ١٣ يونية ١٩١٩ علناً فى إحدى الساحات أمام الجمهور . وعلى جناب البريجادير « أوين باشا » الضابط السياسى المفوض من قبل الحاكم العسكرى العام إبلاغ المتهمين نص هذا الحكم فى الوقت الذى يراه مناسباً واتخاذ التدابير اللازمة لتنفيذه فى الوقت المحدد والمكان الذى يختاره » .

ووقف « الباشا » وأدى التحية العسكرية لنا مرة أخرى : وأشار إلى ضابط إنجليزى يحمل فى جرابه مسدساً ضخماً : فأمرنا أن ندور للخلف وتقدمنا فى السير تجاه سور الفندق الخارجى ووراءنا سرية ضرب النار ببنادقها . ودرنا مرة أخرى لنواجه المنصة ووقف جنود السرية أمامنا صفاً واحداً . وفتش الضابط البنادق ، وجاء بأوراق مستديرة بيضاء ثبتها فوق القلب تماماً ، وربط على عينى كل منا عصابة سوداء فانتزعتها بغضب وألقيتها على الأرض ودستها بقدمى . ثم ربط أيدينا من الخلف.. وأخرج مسدسه ووقف باعتدال متجهاً للمنصة منتظراً إشارة

الضرب من « الباشا » . وطال انتظار الإشارة وقتاً ما .

وهنا رأيت عجباً لم تصدقه عيناى، وآمنت بأن قدرة الله فوق قدرة البشر . والناس فى التفكير والله فى التدبير . فقد حدثت معجزة قبل تنفيذ الحكم بثوان . سيارة حربية يرفرف عليها العلم البريطانى ، غبراء اللون من طول ما علق بها من تراب السفر الطويل تندفع إلى المكان بسرعة جنونية فيفر الجنود من أمامها . وفى وسطها وقف « جنرال إنجليزى أركان حرب » يحمل الشريط الأحمر على قبعته والشارة الحمراء على صدره . وصاح بأعلى صوته لضابط السرية: قف. قف. واندفعت السيارة نحو المنصة وأسرع « الجنرال » متجهاً نحو « الباشا » وتبادلا التحية وكلمات لم تصل إلى سمعى . وناوله مظروفاً عليه أختام بالشمع الأحمر. وما فضه « الباشا » وقرأ ما فيه حتى أشار لضابط السرية بالتقدم نحوه وألقى إليه ببعض الأوامر . فعاد وفك العصابات والأربطة. لقد رأيت كل هذا ولم أصدق حواسى. ولكن زميلى لم يريا شيئاً.

وهنا تملكنى ذهول شديد . ووقف عقلى عن التفكير وحواسى عن إدراك ما يحيط بى . ومر أمام عينى شريط حياتى من نشأتى الأولى . ولست أدرى ما حدث بعدئذ . ولا كم من الوقت مضى ، ثم لا شىء مطلقاً مما جرى فى ذلك الوقت الطويل



الثوار فى ساحة الإعدام

أو القصير . وفجأة تنبهت وعاد إلىّ شعورى وأحسست بجسدى ممدداً على الأرض على شىء خشن حسبته رملا وفى مكان دامس مظلم صامت كالقبر . وحركت بصرى ، ثم أصابع يدى ، وتحسست جسدى ثم صدرى . ولمست فيه شيئاً لزجاً له رائحة الدم . فأيقنت أنى رميت بالرصاص ومت ودفنت فى هذا القبر . وحركت ذراعى بعيداً فلمست يد شخص آخر بجانبى يقوم بنفس المحاولة. فهمست وهمس بكلمات متقطعة خافتة ودار الحديث التالى :

– من أنت ؟

– أنا « حبيب » . . وأنت « مظهر » ؟ !

– نعم !

– يظهر أننا ضربنا .

– نعم ، وأنا أشم رائحة الدم فى صدرى .

– وأين « مصطفى » ؟

– لا أدرى !

– هل جاءوا ؟ . .

– من هم ؟

– الملكان .

– لسه .

– عارف الواحد يقول إيه لما يسألوه ؟

– نعم .

– يسألان : من أنت . ومن ربك . وما دينك . ومن رسولك . وما كتابك . . . .

فقل : أنا فلان ابن فلان . الله ربى . والإسلام دينى . و بمحمد رسولى . والقرآن كتابى . وأشهد أن لا إله إلا الله .

وقبل أن أتم الجملة سمعت وقع أقدام تتحرك وأعددت نفسى لمقابلة الملكين . وسطع النور الكهربائى فى هذا القبر المزعوم . وإذا بنا فى غرفة يغطى أرضها كليم صوف ونحن الثلاثة نيام عليه . وإذا ضابط المعتقل السودانى يقول : « صح النوم . الحمد لله اللى جت كده ، وإن كنت لا أعرف شيئاً مما حصل ولا كيف حصل ولكنهم أحضروكم هنا من ساحة الإعدام إلى المعتقل ثانية . وأنتم فى ذهول تام . وتبعاً للأوامر وضعناكم فى هذه الغرفة مؤقتاً حتى لا تختلطوا بزملائكم المعتقلين . وستنقلون غداً إلى مكان آخر . وآسف أننا لم نستطع أن نعد لكم غرفة أفضل . وعلى كل الحمد لله فقد نجوتم من الإعدام ، وهذه معجزة لا أدرى كيف حصلت . وقد جئناكم بطعام الغداء ولكنكم كنتم تغطون فى نوم عميق فأشفقنا أن نوقظكم ، وهاهو الشيخ « مصطفى » لا يزال

نائماً فأيقظوه بالراحة . نحن الآن بعد المغرب ، وطعام العشاء معد » . وهنا ذكرت قول الله تعالى الله : « يَتوفَّى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها » . وأدركت معنى الحكمة القائلة : « النوم هو الموت الأصغر » وأيقظنا الشيخ . فقام مذعوراً . ولما رآنا اطمأن ، وقبلنا . وحمدنا الله . وجلسنا نتناول الطعام . وجاء الضابط بالقهوة والشاى والسجاير وأخذ الجميع يتبادلون الحديث ويتساءلون ماذا حدث بعد تفتيش البنادق . فهما لم يريا شيئاً فذكرت لهما ما رأيت إلى أن تهت عن الوجود . وأخذنا نتكهن عن السبب ونفكر فى المستقبل . وعجزنا عن التفكير وفوضنا الأمر لله . ونمت نوماً متقطعاً كله أحلام عن الماضى والحاضر والمستقبل .

وفى الصباح الباكر سمعنا مرة أخرى قعقعة السلاح وضرب الأرض بالأحذية الثقيلة كما تعودنا عند مجىء أى ضابط عظيم. ودخل « أورين باشا » وحيانا باليد واحداً واحداً . وجلس معنا على الكليم زيادة فى العطف ، وقال :

لا أستطيع أن أعبر لكم عن سرورى لنجاتكم من الموت قبل التنفيذ بثوان . وأؤكد أنى أحسست بشديد الألم فى ذلك الموقف . وقد ترددت فعلا بعض الوقت ولكن أوامر

المجلس العسكرى واجبة التنفيذ . ولعل الله شاء أن أتردد لبعض ثوان لتنجوا من الموت . وهكذا لطف القدر بكم . وأنتم أحسن حظًّا من غيركم ، ولعلكم تتساءلون عن السر .. لقد اتفق القائد العام مع الحكومة المصرية على إلغاء أحكام المجالس العسكرية على جميع المتهمين السياسيين المدنيين لأنهم لا يخضعون للقانون العسكرى وإحالتهم إلى محاكم عسكرية لها نظام آخر . وهذه نسخة من قانونها عليكم أن تدرسوها بإمعان وترتبوا دفاعكم بمقتضاها . ونظراً لضيق الوقت وتعذر الاتصال بالسكة الحديد أرسلت القيادة « الجنرال أوشى » الذى حضر بالأمس وجاء بالسيارة العسكرية من القاهرة بأسرع ما يمكن إلى أماكن تنفيذ الأحكام لإبلاغ الأوامر الجديدة . وقد وصل « ديرمواس » بعد إعدام المتهمين وهم يستحقون لأنهم مجرمون متوحشون قتلوا مفتش السكة الحديد الأعزل وألقوا ببعض الضباط فى فرن وابور القطار وهم أحياء . ولذلك لا آسف عليهم . ولكنى أسفت على « محمد كامل » مأمور بوليس أسيوط . فقد أعدم قبل وصول « الجنرال » ببضع دقائق .

وستنقلون الآن إلى سجن قنا انتظاراً للمحكمة العسكرية . وبهذا تنتقلون من السلطة العسكرية البريطانية إلى السلطة المصرية . وأرجو أن يحسنوا معاملتكم كما أحسناها . وإن كنت أشك فى

ذلك ، والآن انتهت مهمتى فأستودعكم الله ، ومع السلامة ، والحمد لله على نجاتكم . وودعنا وانصرف .

وفجأة أخذ الشيخ « مصطفى » يسب الإنجليز ويلعنهم بعبارات جارحة أدهشتنا وأفزعتنا فى نفس الوقت ، فأنكرنا عليه مقابلة جميل « الباشا » بالجحود والنكران فقال : مؤكد أن السلطة المصرية ستبالغ فى إساءة معاملتنا بأمر السلطة البريطانية نفسها ؛ إن الإنجليز مكارون مخادعون منافقون وأنا أعرف سياستهم أكثر منكم وقد جربتهم فى السودان . فقد كان « المفتش الإنجليزى » يأمر « المأمور المصرى » أن يسىء إلى السودانيين ويشتط فى طلب الضرائب وجباية أموال الميرى ويستخدم العنف والقسوة فى التحصيل . ويعاقب على الهفوات الصغيرة بأشد العقاب . فيتقدمون بالشكوى للمفتش بطبيعة الحال ؛ فيستدعى المأمور المصرى أمامهم . ويعنفه أشد تعنيف وينذره بالعقاب وينصف الأهالى بأكثر مما كانوا يرجون . فيخرجون وهم يمجدون « المفتش الإنجليزى » ويحبون الإنجليز ويلعنون « المأمور » ويكرهون المصريين . كل هذا لبث كراهية المصريين فى نفوس السودانيين والإشادة بعدل الإنجليز . والمصرى الذى يمتنع أو يحتج يعاقب وينفى للمديريات الاستوائية . والذى يرضخ يرقى . وها هم يكررون

نفس الدرس معنا ، يحسنون معاملتنا أولا . ويأمرون السلطة المصرية بإساءتها ليظهر الفرق بين الطرفين فتنطفئ روح الثورة عليهم فى نفوسنا . تماماً كما يفعلون فى السودان . وسترون .

قلنا : فال الله ولا فالك يا شيخ . سنرى ما يكون . والله الذى نجانا فى الأولى سوف لا يتخلى عنا فى الثانية . والله على كل شيء قدير .

وودعنا الحرس السودانى فى المعتقل دون أن نمر على أصدقائنا ؛ وسرنا إلى محطة السكة الحديد فى صحبة سرية سودانية رافقتنا إلى باب السجن وودعونا أمام باب صغير يفتح من باب السجن الكبير الذى كتب عليه : السجن تأديب وتهذيب وإصلاح .

وفى أثناء رحلة القطار درسنا قانون المحكمة العسكرية بإمعان فداخلنا شيء كثير من الاطمئنان والتفاؤل . لأن مبدأ المحاكمة هو أن المتهم برىء حتى تثبت إدانته . وحق الدفاع ومناقشة الشهود وطلب شهود النفى والمستندات والوثائق وكافة ما يفيد الدفاع مكفول . والمبدأ الثانى أن المحكمة الإنجليزية لا تأخذ بالقرائن والشبهات أو الاستنتاج وإنما بالدليل المادى الملموس كالرؤية المباشرة بالعين والسماع المباشر بالأذن والكتابة بخط اليد . أما ما ينقل عن الغير أو يؤخذ بالظواهر فترفضه المحكمة .

وبدأت بوادر سوء المعاملة التى أشار إليها « الباشا » تظهر من اللحظة التى تخطينا فيها باب السجن الصغير . فقد نادى السجان البواب كاتب السجن من الغرفة المجاورة وقال : « المجرمين الجداد وصلوا ». وجاء الكاتب ومعه دفتر الوارد . وهو صورة حية للموظف المنسى المزمن القذر . وقبل أن يجلس إلى المنضدة الصغيرة ويفتح الدفتر بادرته بقولى : يا حضرة الباشكاتب نحن لسنا مجرمين كما قال الجاويش. نحن معتقلون سياسيون . فتفرس فى وجوهنا ملياً وقال بغضب : « كله زى بعضه . اسكت يا أفندى ودعنى أشوف شغلى » . وأخذ يسألنا واحداً واحداً عن الاسم والسن والبلد ويدون ذلك فى الدفتر . ولم يسألنا عن العمل أو الوظيفة، ثم أعطى كلا منا قطعة معدنية بيضاوية الشكل بيضاء اللون عليها رقم باللون الأزرق وقال: « أنتم هنا نمر بدون أسماء ». وكان رقمى ٥٢٥ . وسأل: هل معنا أمانات تحفظ فى خزانة السجن؟ فقلت: لا شىء غير ما علينا من ملابس . فشخط ونطر قال : « بلاش هزار يا مسجون » . وأخذ منا ساعات اليد أمانات وأثبتها فى الدفتر .

واقتادونا إلى غرفة مأمور السجن « القائمقام جودة » فوجدناه رجلا كبير الجسم متجهم الوجه يجلس إلى مكتبه كالأسد الضارى

فى قفص حديقة الحيوان ، وتأملنا قليلا . ولما أوقفنا الضابط صفاً
واحداً أمامه صرخ قائلا : « مساجين . زنهار . سلام آل »
وكان النداء العسكرى وقتئذ بالتركية . فقال المأمور : « شوية
شوية . لسه بدرى عليهم . اتفضل أنت شوف شغلك » فخرج
الضابط وانتظر المأمور قليلا حتى اطمأن من وقع أقدام الضابط
أنه ابتعد تماماً عن الغرفة . وأمرنا بالجلوس وقال : كل البلد
تعرف أنكم ثوار أسوان ونواب الوفد المصرى والمعلومات كلها
وصلتنى عنكم . ومفتش الداخلية أمرنى تلفونياً هذا الصباح أن
أشتد معكم أنتم بالذات وأعاملكم معاملة المساجين العاديين ،
مع أنه لا محل لكم هنا فأنتم لم يحكم عليكم ، إنما أنتم معتقلون
سياسيون فى انتظار المحكمة العسكرية . والسجن ليس مكاناً
للحجز الاحتياطى . ولكن هذه هى الأوامر . ومفروض أننى
هنا «المأمور» ولكنى فى الواقع « العبد المأمور » ، أنفذ الأوامر دون
مناقشة . وما دمتم هنا فانسوا ما كنتم عليه بالخارج واذكروا
فقط أنكم فى السجن . والسجن له لوائح يجب أن تتبع وأوامر
يجب أن تنفذ . والمخالفات لها عقوبات بدنية شديدة وقاسية .
أخفها الجلد . وأشار إلىّ وإلى « حبيب » وقال : أنتما الاثنان كما
تبدوان المدرسان المتعلمان فى جامعات إنجلترا ، فلماذا ثرتما على

الإنجليز ؟ فتمهلت قليلا وقلت : حقيقة نحن تعلمنا هناك كيف نكره الإنجليز هنا ، إنهم هناك ديمقراطيون مهذبون يقدسون الحرية ، ولكنهم هنا أجلاف متغطرسون ، يقتلون الحرية. فهز رأسه وقال : ربما ، ولكن أرجو أن تكتموا هذا الكلام فى أنفسكم وكونوا حريصين . ومع احترامى لأشخاصكم فأنتم هنا مساجين والسجن يعج بالجواسيس ، السجانون يتجسسون على الضباط والنزلاء والضباط يتجسسون عليهم وعلىّ أنا أيضاً . وأنا أتجسس على الجميع . والأوامر تقضى بمعاملتكم كالمساجين العاديين . ولكنكم رغم هذا ستبقون بملابسكم العادية ، وتنضمون إلى بقية زملائكم المعتقلين وتنامون مثلهم داخل حرم السجن . وليس فى « الزنزانات » . وتحضرون طابور الصباح وعرض تنفيذ الأحكام ما عدا الشنق ، وطبعاً لن تجدوا السجن مثل « ونتر بالاس » أو حتى « بيت سنجر » وستصادفكم أمور تدعو للشكوى . ولكن اعلموا أن أوامر مفتش الداخلية المشددة بشأنكم أنتم دون غيركم . وها أنتم ترون أنى أخاطر من أجلكم والأمر لله ، فتحملوا ولا تصعبوا مهمتى .

وسأل : هل معكم نقود أو لكم أقارب فى قنا ؟ ولما أجبنا بالنفى قال : إذن سيكون الأكل مشكله ولذلك سنصرف لكم اليوم من تعيين المساجين إلى أن نتدبر الأمر. وهنا عدد من الثوار

معتقلون مثلكم على ذمة التحقيق والمحاكمة وستذهبون إليهم الآن وتتعرفون عليهم فى الغرفة المخصصة لهم . وصحبنا إلى الغرفة وقدمنا لهم وتركنا . فوجدنا غرفة خالية من كل شىء إلا من كليم على الأرض . ومن فيها جلوس يتسامرون فرحبوا بنا وسألونا عن حالنا . وعرفنا منهم الأستاذ « هاشم مهنا» القاضى (ورئيس ديوان الحسبة بعدئذ) والأستاذ الشاب « مصطفى مهنا » المحامى والشيخ « دندراوى » وشقيقه الشيخ «رشيدى» من أعيان « قنا » وثوارها البارزين ، و « حافظ بك الكلح » من أعيان « نجع حمادى » ، و ابن أخيه الطالب بالثانوى ، والشيخ « غزالى » المعلم الإلزامى ، و« عواد » الفلاح الصعيدى . وبعد قليل لحق بنا الشيخ « مصطفى الأقصرى » والشيخ « الحجاجى» . وفى موعد الغداء جاءت صوانى عليها أطعمة طيبة مطهية لهم ، كانت تأتيهم من أهليهم ، وجاء السجان بطعام السجن لنا . فأقسموا علينا أن نشاركهم الطعام فهو يكفى وزيادة، فقبلنا شاكرين. وعلم أعيان وتجار « قنا» بنزولنا السجن فاعتبرونا ضيوفاً عليهم وأخذوا يرسلون الطعام لنا مع إخواننا .

وقبيل الغروب حضر أحد ضباط السجن ومعه قائمة أخذ يتلو منها أسماءنا واحداً واحداً للتمام علينا، ثم وقفنا صفا طويلا ،

وسار بنا الضابط وحولنا بعض السجانين إلى باب حديدى كبير هو مدخل حرم السجن الذى يبيت فيه المساجين فى « زنزاناتهم» ودخلت طوابير المساجين وبعد التمام عليهم وتوجه كل منهم إلى « زنزانته » بمرافقة السجان أقفلت أبواب « الزنزانات» . وتسلم الضابط مفاتيحها ثم أغلق باب الحرم وختمه بالشمع الأحمر وحمل المفاتيح معه إلى خزانة السجن. حيث تبقى هناك إلى أن يفتح الحرم فى الصباح الثانى. ومن العجيب أن الحرم لا يفتح أثناء الليل مهما حدث فيه . . وكان فى داخل هذا الحرم طرقة طويلة تقع « الزنزانات» على جانبيها . وقد فرشوا فيها لكل منا برشاً وكليماً صغيراً وبطانية . بحيث يضطر الواحد منا أن يضع حذاءه تحت رأسه بدل الوسادة ويكور عليه الجاكتة أو العباءة.

وبعد صلاة العشاء أخذ الشيخ « غزالى» يتلو ما تيسر من آى الذكر الحكيم بصوت مقبول . ويبدو أن المساجين كانوا محرومين من هذا الترتيل. فما إن ختم السورة حتى ارتفعت الأصوات من داخل « الزنزانات» : «الله لا يحرمنا منك يا فضيلة الشيخ». فانزعج الشيخ ورد عليهم: « الله يخرب بيتكم ويحرمنا منكم. أتريدون أن أبقى مسجوناً معكم » . وأطفئت الأنوار . وسكتت الأصوات استعداداً للنوم . وبعد قليل سمعت فجأة صوتاً

غاضباً فى الدور الثالث يقول : «انت يا ابن الكلب يا وسطانى سيب الخيط وإلا أكسر دماغاك بكرة . والله العظم أدبحاك » .
وجاء السجان حارس الايل مهرولا يأمر بالسكوت لتمر الليلة على خير .

واقترب من مكانى . فقد كانت الصيحة فى « الزنزانة » العليافوق رأسى . فسألته ما الخبر ؟ فقال فى بساطة : « يظهر أن التحتانى بعت حاجة للفوقانى فمسكها الوسطانى » .
ولم أفهم هذا اللغز فعدت أسأله : بعت إيه ؟ وليه ؟ قال : « يبعت سجاير أو أفيون والمسألة كلها بيع وشراء » وشرح لى العملية بكل بساطة كأنها شىء عادى ليس فيه مخالفة لقوانين السجن .

وهى أن يصنع المسجون خيطاً من صوف الكليم أو « البرش » ويربط به طاقيته . ويكون قد اتفق مع من تحته أو فوقه على شراء الشىء أو بيعه ويوضع الشىء فى الطاقية ويتحرك الحبل وتصل البضاعة ثم يدفع الثمن بنفس الطريقة.وأحياناً يحس الوسطانى بالعملية فيتربص للحبل ويأخذ الشىء لنفسه، ويحدث الانتقام فى اليوم الثانى عند المقابلة والشىء مخبأ فى ثنايا «البرش » بحيث لا يظهر عند تفتيش « الزنزانه » ، وبعضهم يضع الشىء

فى مناطق حساسة من جسمه أو تحت إبطه. والمعاملة بأنصاف الفرنكات الفضية التى يهربها لهم أهلهم بحيل مختلفة . فقلت : إذا كنتم تعرفون كل هذا فلماذا تتركونهم ؟ فقال ببساطة: «لأنهم يدفعون . وهكذا حال السجن من تحت لفوق . واحنا كلنا بناكل عيش . يا عم خليها على الله . إيدك بقى » . فقلت ضاحكاً : « يا عم احنا جداد لسه ما اتعلمناش الكار وليس لنا أقارب » . قال : « إذن راح تتعبوا ويانا » . وكشف هذا الحديث عن بعض أسرار السجن الذى كتب على أعلى بابه الكبير « تأديب وتهذيب وإصلاح » .

وما كدت أغمض عينى بعد هذا اليوم الطويل الشاق حتى طرق سمعى فى «الزنزانة» الأرضية المقابلة صوت اصطدام شيء معدنى رنان صلب أصم أعقبته صرخة آدمية مفزعة وقف لها شعر رأسى ثم حشرجة وسكون كصمت القبور. ولم يتحرك حارس الليل. وماذا يستطيع و « الزنزانات » مقفلة وعنبر السجن لا يفتح إلا صباحاً والدنيا ظلام دامس. والمفاتيح فى خزانة المأمور الذى يغط الآن فى نومه بين أهله وأولاده. وفى الصباح الباكر دوت صفارات السجن فقمنا وارتدينا ثيابنا وحملنا فراشنا حسب التعليمات ووقفنا ننتظر . وسمعنا صرير الباب الخارجى ودخل

« الباشسجان » وخلفه السجانون وأخذ يفتح « الزنزانات » فيجرى المساجين إلى دورات المياه . وفتح باب «الزنزانة» التى سمعت الصراخ فيها ولم يخرج منها أحد. ووقف الرجل على بابها كالصنم. واقتربت ونظرت داخلها فرأيت منظراً مفزعاً تقشعر منه الأبدان. نصف جثة مهشمة الرأس لمسجون والمسجون الآخر جالس القرفصاء يحملق فى الجثة . وتكشف السر. فالمسجونان استطاعا أن يحدثا ثقباً فى أسفل جدار الزانزانة يكفى لخروج شخص واحد . واقترعا على من يخرج أولا. وخرج الرجل الأول برجليه خشية غدر الثانى ،وخشى الثانى أن تفوته الفرصة فحاول أن يسحب الأول للداخل ثم يخرج هو أولا . فقاومه مقاومة صامتة عنيفة حتى لا ينبه السجان، ولم يقدر عليه ، فتناول « الجردل » وضربه على رأسه فقتله. وحاول أن يدخل الجثة فلم يستطع لأنها انحشرت فى الثقب .

وهكذا كانت ليلتى الأولى فى السجن. وحضر المأمور والضابط على عجل وأخرجونا من العنبر إلى غرفتنا لتناول الإفطار دون أن نغتسل . وكان الطعام سمـًّا زعافاً .

ثم نودى علينا لطابور الصباح ، فخرجنا صفـًّا واحداً إلى جزء من فناء السجن ، فنادى السجان « صابك » . ووقف

فى الوسط وأخذنا ندور حوله عدة مرات فى تراخ وكسل وهو لا يهتم . وفى الجانب الآخر من الفناء كان المساجين يدورون فى طابور مماثل ولكن كلا منهم يحمل بين يديه كرة حديدية « جلة » كبيرة إمعاناً فى التعذيب . وفجأة ظهر أحد الضباط وكنت بالصدفة قريباً من السجان فضربنى على قفاى ضربة شديدة بمجموعة المفاتيح فألقانى على الأرض وقال : « ما تمشوا فى الطابور كويس . إنتو ياولاد الكلب يا بتوع المظاهرات » واحتملت الضربة صاغراً إلى أن انتهى « صابك » طابور الصباح واسترحنا قليلا على الأرض . وعاد زملاؤنا إلى الغرفة ، أما نحن الثلاثة فقد ساروا بنا إلى مكان تنفيذ الأحكام. وكان وسطها « العروس السوداء » التى يقيد إليها المحكوم عليه بالجلد كأنه يحتضنها وظهره عار . وإلى جوارها وقف سجان عملاق يمسك « القطة أم سبع ذيول » وهى كرباج ضخم سميك له سبعة فروع فى آخر كل منها قطعة حديد أو رصاص ، ويغمسه السجان بين آن وآخر فى « جردل » به ماء مالح . وبجوار العروسة وقف طبيب فوق أذنيه سماعة القلب يجس بها نبض المجلود و « تومرجى » يحمل صندوقاً صغيراً به مراهم وقطن وشاش وأربطة لتضميد الجروح . ونودى أولا على طالب الثانوى

وكانت عقوبته عشرين جلدة . وبدأ الضرب . وكل ضربة تخرج بالدم . وتجلّد الطالب بقدر ما يستطيع ولكنه بعد الجلدة الخامسة لم يحتمل العذاب وصرخ وتوالى صراخه . ثم خفت صوته تدريجيا وانقطع تماماً عند الجلدة العاشرة. ففحصه الطبيب وقرر إيقاف الجلد لأن القلب كاد أن يتوقف . وأسعفوه ونقلوه إلى مستشفى السجن: ونودى بعده على الفلاح الصعيدى العملاق: وكانت عقوبته ثلاثين جلدة احتملها كلها دون أن يهمس بحرف أو تختلج فيه عضلة رغم أن ظهره تمزق وتناثر لحمه . فلما أسعفوه بالضمادات قام من تلقاء نفسه ومر علينا وابتسم وقال : الحمد لله على كده . أنا كنت فاكر فيها دم » . أى إعدام .

وسارت الحال على هذا المنوال ثلاثة أيام ثم استدعينا لحضور جلد مسجون . لحظ الطبيب فى عينه احمراراً زائداً وبفحصه وجد قطعة أفيون مخبأة تحت الجفن .

وفى عصر اليوم الرابع دعانا المأمور« أنا » و« حبيب » فقط إلى مكتبه وخرجنا معه واخترقنا حديقة صغيرة إلى ڤيلا : هى مسكنه الخاص الملحق بالسجن. وهناك استقبلنا استقبالا كريماً ورحب بنا وأحضر الشاى والبسكويت والحلوى والسجاير . ثم أحضر لنا أوامر وتعليمات من مفتش الداخلية ومفتش عام

السجون بالإنجليزية ورجانا ترجمتها ، ثم عدنا إلى السجن . وتكررت هذه العملية عدة مرات . ونسيت أنه بعد أن ضربني السجان بالمفاتيح وعدنا إلى غرفتنا سألته : ما دمت أنت مسلماً ونحن مسلمين كذلك . فلماذا تشتمنا وتقول المظاهرات الإسلامية؟ فقال : لا مؤاخذه أنا شديد الأسف والسجن كله جواسيس ، وأخشى أن يتهمني الضابط بالتساهل معكم والكلام يصل إلى الجهات العليا خارج السجن وتعليمات مفتش الداخلية تقضى إساءة معاملتكم دون سائر المساجين . وذكرني هذا بكلام مأمور السجن .

وحدث ونحن بمنزل المأمور أن طلب منا ترجمة برقية وردت صباحاً تقول : إن الأميرالاى « لوكاس » مفتش عام سجون الوجه القبلي سيزور السجن بعد يومين لاستعراض المسجونين السياسيين . وما سمع المأمور هذا حتى استعاذ بالله من شر هذه الزيارة لأن الرجل شرس حاد الطبع سريع الغضب . ورجانا ألا نستفزه بكلمة أو إشارة ولا نرد أبداً على ما يقول . وربنا يجيب العواقب سليمة . وأخذنا ننتظر هذا اليوم المشؤوم فى قلق واضطراب . ونبهنا زملاءنا بالتزام الهدوء والصبر وعدم الشكوى أو الرد عليه بما يغضبه .

وفى اليوم المعهود خرجنا نحن المعتقلين السياسيين إلى حوش السجن ووقفنا فى نصف دائرة وحولنا الضباط والسجانون . أما المأمور ونائبه فكانا أمام الباب الرئيسى يستقبلان « جناب المفتش العام » . ودخل علينا الرجل بلباسه العسكرى وطربوشه الأحمر ومعه عصا من الخيزران ذى العقل المدببة يهزها يميناً ويساراً ، كأنه يتحفز للضرب . ومن خلفه سرية من جنود « الجوركا » الهنود البدائيين يحمل كل منهم بندقية ركبت فيها السونكى ، ووقفوا خلفنا كالتماثيل والبنادق فى ظهورنا . وتفرست فيه فإذا هو نفس المدرس « المستر لوكاس » مدرس الجغرافيا بالمدرسة الخديوية . الذى كان يعاملنى بمنتهى اللطف والحنو ، فاطمأنت نفسى قليلا .

واقترب منا الرجل وكأنه أسد هصور ، ووقف يتطلع إلينا واحداً واحداً وأخذ يقذف من فمه سيلا من أقذع الشتائم ويسب الثوار المصريين الناكرين لجميل بريطانيا على مصر . بريطانيا التى أصلحت البلاد ورقتها ومدنتها وحمتها من الألمان والطليان . كما حمتها من الأتراك من قبل . وأخذ يسأل كلا منا عن اسمه وعمله . وبدأ بالصعيدى العملاق وقال : « أنت حمار بهيم لا تعرف شيئاً . اخرج بره امشى » . واتجه إلى المشايخ وقال :

وأنتم رخرين بهائم . أطيان كتير وفلوس كتير لكن مخ مفيش الحق على اللورد كرومر اللى كان يدافع عن الفلاح ويحميه من ظلم الباشوات » . ثم قال للمحامين : « أنتم بغبغانات كلام فارغ كتير . خطب وهتافات . كلام . كلام . بريطانيا لا تخرج بالكلام والخطب والهتاف والمظاهرات » . ثم أشار إلىّ بالعصا فقلت : أنا سعيد جداً « لوكاس بك » لتشريفك اليوم . أنا « مظهر سعيد » تلميذك فى الجغرافيا فى المدرسة الخديوية وفى الكورة والجمباز . فنظر إلىّ بطرف عينه ، وقال : « ودلوقت بتشتغل إيه ؟ » قلت : مدرس . فرفع عصاه وضربنى على وجهى ضربتين قاسيتين أسالا الدم من صدغى ووجهى . وفقدت صوابى وكدت أهجم عليه ولكن « حبيب » تصدى لى وحسناً فعل . فقد أحسست بالسونكى يغرسه الجندى « الجوركى » الواقف ورائى بين ضاوعى فوقفت ساكناً ورفعت يدىّ إلى أعلى علامة الاستسلام . وصاح « لوكاس » غاضباً هادراً كالثور الجامح : « أنتم المدرسين أنتم طاعون البلد . تسمموا أفكار التلاميذ والأعيان والفلاحين الحمير يعملوا مظاهرات وتخريب . وتعلموا الفلاحين والعمال العصيان والثورة ، أنتم تستاهلوا ضرب الرصاص من غير رحمة » . ويبدو أن الغضب أفقده صوابه وازداد احمرار وجهه وأذنيه ، فأدار ظهره

وانصرف والمأمور وجنود «الجوركا» فى أثره دون أن يتم دورة الأسئلة . وحضر الطبيب وضمد جراحى ونقلونى إلى غرفة الجلوس .

وبعد أسبوع حضرت المحكمة العسكرية . وأفردوا لها قاعة فسيحة فى السجن . وضعت فيها منضدة كبيرة طويلة وعدة كراسى حولها وأمامها ثلاثة كراسى . ودعينا نحن الثلاثة فقط : « أنا » و « حبيب » و « مصطفى قدرى » — للمثول أمامها. وفى طريقنا إليها وجدنا عدداً من أهل أسوان جلوساً ووقوفاً فى الحديقة خارج غرفة المحكمة . وفيهم ناظر المدرسة وسكرتيرها . وألقينا التحية فلم يرد أحد فأدركنا أنهم شهود إثبات جندهم مفتش الداخلية ضدنا . ودخلنا الغرفة فوجدنا حول المنضدة هيئة المحكمة برئاسة « بريجادير إنجليزى » وعضوية « قائمقام هندى » و « ضابطين إنجليزيين » آخرين . وإلى جانب المنضدة « يوزباشى مصرى » يقوم بالترجمة . وقبل بدء المحاكمة استأذن الضابط المترجم « اليوزباشى حسن حسنى الزيدى — الفريق الزيدى فيما بعد » رئيس المحكمة أن ينتحى بنا جانباً ليشرح لنا قانون المحكمة العسكرية الإنجليزية . وهنا تمت المسرحية الرابعة البالغة الخطورة التى قام فيها « الزيدى » بدور المؤلف والمخرج وأداه بكل شجاعة وجرأة وتضحية ووطنية صادقة . فقد فتح

الكتاب فعلا وتطلع إلينا كأنه يقرأ ويترجم . وقال فى صوت خافت: «أنا وطنى مثلكم ما تخافوش . وأنت يا "مظهر" أنا صديق والدك . لقد رأيتم فى الخارج أشخاصاً تعرفونهم فى أسوان أحضرهم المدير بأمر مفتش الداخلية ليشهدوا ضدكم» . ورسم لنا خطة الدفاع وطريقة الكلام والإجابة وناشدنا أن ننفذها بحذافيرها كما رسمها . وقد كان. وبفضل الله و«الزيدى» نجونا من الموت أو على الأقل السجن أو الجلد . وعاد بنا وأوقفنا أمام المنصدة :

ونادانا رئيس المحكمة واحداً واحداً بأسمائنا فأجبنا باحترام وقال : أقسموا أشهد بالله العظيم أن أقول الحق كل الحق . ولا شيء غير الحق . وأقسمنا . فأمرنا بالجلوس على الكراسى المعدة لنا فى مواجهته . وقال : أنتم الثلاثة . فلان وفلان . وفلان . أما الرابع فلان فقد سقطت عنه الدعوى لوفاته: متهمون بكذا وكذا. وتلا نفس الاتهامات الواردة بحكم المجلس العسكرى السابق دون ذكر الأحكام . وتمهل قليلا ثم قال : أنتم تحاكمون أمام محكمة عسكرية وفق القانون الإنجليزى الذى اطلعتم عليه منذ قليل . فهل لكم اعتراض على هيئة المحكمة ؟ فانبريت بسرعة . حسب تعليمات «الزيدى» وقلت : ياسعادة «الجنرال الرئيس» إنه

يسعدنا ويشرفنا نحن الذين درسنا فى جامعة « كمبردج » أن نقف أمام قاضى إنجليزى وقضاة بريطانيين عرفوا بالعدالة والإنسانية والتمسك بروح القانون وليس بحرفيته . فابتسم وقال : إن هذه التهم التى تشير إليها التقارير : مظاهرات عدائية، تعطيل لأعمال الحكومة . تخريب . تقارير وشهود كلها تدينكم . فهل أنتم مذنبون أم غير مذنبين . فقلنا معاً : غير مذنبين . وعدت فقلت يسمح لى سعادة « الجنرال » بكلمة : إن هذه التقارير المختلقة صادرة عن مدير المديرية والبوليس والمدير كاذب جبان ؛ وكانت بيننا وبينه أمور شخصية دفعته للنكاية بنا . وهناك سر أخجل أن أبوح به علناً . أقوله للرئيس فى أذنه إذا سمح. فقال : بل قل للمحكمة كل ما تريد فليس هنا أسرار . فقلت : إن المدير له بنتان فأراد أن يغرينا بزواجهما . « أنا » و« حبيب »، وهما لا تجدان فى أسوان من هم أفضل منا شباباً وثقافة ومركزاً . فاعتذرنا بطبيعة الحال لأن « حبيب » خطيب شقيقتى و« أنا » خطيبتى تنتظرنى بالقاهرة . ومن ذلك الوقت تغيرت معاملته لنا فقاطعنا وسلط البوليس وراءنا لمضايقتنا . بعد أن كان يدعونا بين آن وآخر لتناول الشاى . ولو حضر هنا أمام المحكمة الموقرة لفضحت لكم كذبه . أما البوليس فمعذور لأنه مأمور

وعليه أن يلفق ويكذب ويزور كما يأمره المدير . فتجهم وجهه وظهر الغضب عليه لأن القضاة الإنجليز لا يكرهون شيئاً أكثر من النقائص الخلقية . كما لمست بنفسى أثناء دراستى بإنجلترا فيما بعد .

ثم قال : ما علينا . فما الذى حدث إذن فى أسوان ؟

فقلت : أما وقد أقسمنا اليمين أمام المحكمة الموقرة . فبالنيابة عن زملائى أقرر الحقيقة كاملة تحت مسئوليتى وأترك لضمائركم الحية وعدالتكم المعروفة تقدير الظروف والملابسات . ونحن قابلون مطيعون للحكم كيفما كان .

فارتاح الرئيس على كرسيه وابتسم . وقال : استمر . فقلت : حقيقة الأمر أن الشعب كله خرج فى مظاهرة سلمية لإظهار شعوره نحو قضية بلاده العادلة . وهذا أسلوب لإعلان الرأى العام الحر . وقد شاهدنا الكثير من هذا فى حديقة « هايدبارك » « بلندن » بل إننا شاهدنا ملاحدة وفوضويين يعلنون آراءهم المتطرفة فى حرية مطلقة . وأشخاصاً يتناولون الأسرة المالكة والكنيسة والبرلمان والحكومة بنقد لاذع وبذىء أحياناً . والجمهور يسمع فى هدوء والبوليس لا يتعرض لأحد ، لأن القانون الإنجليزى يحمى حرية الرأى ولا يعاقب عليه . فردياً أو جماعياً مهما كان متطرفاً ومنحرفاً . وإنما يعاقب على استخدام العنف والإكراه والوسائل

غير المشروعة فى تنفيذه . ولم يحدث أى شىء من هذا فى أسوان .

وقاطعنى الضابط الهندى قائلا : أنتم كما يقول التقرير لم تشتركوا فى مظاهرة فقط ولكنكم دبرتم وأشرفتم وقدتم وحملتم الطلبة والموظفين والأهالى على الاشتراك فيها .

فأجبت فى هدوء وابتسام موجهاً كلامى للرئيس : إن المظاهرة إذا لم تكن لها قيادة محترمة مطاعة يحتمل جداً أن تضم بعض المتحمسين غير المسئولين أو حتى الغوغاء الذين لم يعتادوا النظام . وقد خشينا من هذا وحسبنا حسابه . ولما كنا مدرسين لنا مكانة مرموقة وكلمة مسموعة عند الطلاب وأولياء أمورهم . فقد طلبوا منا أن نقوم بمهمة الإرشاد والقيادة . وقد كلفنا الضابط فعلا بالقبض على بعض الغوغاء الذين أرادوا اقتحام محطة السكة الحديد وتخريب القطار وقطع أسلاك التلغراف والتليفون .

وتدخل « حبيب » وقال : وأحب أن تعرف المحكمة الموقرة أننا عثرنا بالفيلا التى كان يملكها الجاسوس الألمانى الخطير « فريتز رفورل » واستأجرناها من الحراسة البريطانية على أملاك رعايا الأعداء . على جهاز لاسلكى وشفرة حربية سرية ، وسلمتها للحارس القضائى ، وكيل البنك الأهلى بأسوان .

ووصلنا خطاب شكر وتقدير من القيادة العسكرية العليا . وقد حافظنا على الضباط الإنجليز وأسرهم فى فندق « كتراكت » وأجبنا كل طلباتهم . وأكرمناهم كل الإكرام . وكذلك مع « برنارد باشا » السكرتير المالى لحكومة السودان ومرافقيه . ويسرنا لهم العودة للسودان فى أمان وسلام . أما عن المهندسين والموظفين الإنجليز بمستعمرة الخزان فقد خشينا عليهم من تهجم بعض الغوغاء الذين لا سلطان لنا عليهم هناك فحرسناهم وأجبنا كل طلباتهم . وقد سجل الضباط شكرهم فى دفتر الفندق فأرجوأن تطلبوه لتطلعوا عليه . ودون الرئيس بعض ملاحظات على ورق أمامه . وتسلمت طرف الخيط من « حبيب » وقلت : إذا كانت المحكمة الموقرة قد اطلعت على تقارير كاذبة مزيفة . فهناك تقارير صادقة كتبها الضباط الإنجليز الشرفاء وعلى رأسهم « برنارد باشا » نرجو الأطلاع عليها لتتأكدوا أن هذه الدعوى كيديه باطلة. فابتسم الرئيس وقال : لقد سلمنى « أوين باشا » تقرير « برنارد باشا » عنكم واطلعت عليه وهذا هو وسلمه إلى الضابط الهندى الذى هز رأسه وقال فى عناد : ومع ذلك فلا بد من سماع الشهود .

وجاءت لحظة المسرحية . فرفعت أصبعى للرئيس وقلت : نستأذن المحكمة فى استراحة قصيرة نؤدى فيها فرض الصلاة

وقد حان موعدها . وأذن الرئيس بذلك . فوقفنا قرب الباب ووقف الشيخ « مصطفى » أمامنا ورفع يديه للسماء وقال : بصوت عال يسمعه من فى الخارج : « أنتم يا شهود ياللى بره اسمعوا . والله العظيم ثلاثاً لو حد منكم شهد ضدنا أو قال إنه سمعنا أو شافنا لا بد نجيب رجله، ونثبت أنه اشترك معنا بالباع والدراع وأنه كان فى وسط المظاهرة . وتدخلوا السجن معانا » . وأخذنا نصلى ركعتين وفى كل ركعة يكرر الشيخ هذا التحذير . وكان الضابط الجندى لا يعرف صلاة المسلمين فسأل الرئيس : ماذا يقولون ؟ فرد عليه : إنهم يتلون آيات القرآن كتاب المسلمين المقدس . وتمت مسرحية الصلاة فعدنا وجلسنا أمام المحكمة . وتداول الرئيس مع العضوين الآخرين وقال : حسناً. استدعوا الشهود . فدخل جماعة منهم وبسؤالهم أخذ كل منهم يجيب بسرعة وكأنه يود أن يطير ويهرب بعيداً عن المكان : أنا لم أر ولم أسمع . أنا كنت بعيداً عن المظاهرة . أنا كنت بالبيت . أنا كنت مريض . أنا كنت خارج أسوان . وطبيعى أنهم سمعوا التهديد وهم خارج غرفة المحكمة . وبعد سماع عدة شهود والبقية ما زالت تنتظر بالخارج ضاق الرئيس ذرعاً وتملكه الغضب وضرب المنضة بيده وقال : شىء عجيب ! هذا المدير

مجنون أو إنسان كاذب شرير . لماذا أحضر كل هؤلاء كشهود إثبات وهم فى الواقع شهود نفى . اخرجوا جميعاً عليكم اللعنة . وعلى كل حال أنا مكتف تماماً بتقرير « برنارد باشا » ولا أريد أن أسمع شيئاً آخر . وأشار إلينا وقال : انصرفوا أنتم وسنبلغكم الحكم فيما بعد . فشكرنا المحكمة على سعة صدرها وعدالة حكمها المنتظر . وعدنا إلى غرفة جلوسنا بالسجن . وبصرنا زملاءنا المحامين المصريين المعتقلين بأسلوب المحاكمة ونظام المحكمة . وأجمع الكل على أن طرد رئيس المحكمة لبقية الشهود علامة طيبة وفأل خير . وعدنا إلى حياة السجن الروتينية كما كنا .

وذات يوم استدعانا مأمور السجن نحن الثلاثة إلى مكتبه ودخلنا فوجدناه غاضباً أشد الغضب وفى يده خطاب يقرؤه بإمعان . ولما رآنا انفجر يقول : « الراجل مفتش الداخلية ده وحش مجنون بينكم وبينه إيه . أنتم قتلتم أبوه وبينكم وبينه تار بايت » اسمعوا أمر جنابه : بما أن المحكمة العسكرية قد أصدرت حكمها بالبراءة فى قضية فلان وفلان وفلان ، فيخلى سبيل الشيخ « مصطفى قديس » فوراً ويفرج عنه وتسلم له تذكرة سفر بالدرجة الثالثة بالسكة الحديد ويرحل إلى أسوان مباشرة . أما المتهمان الآخران فلان وفلان فيبقيان فى السجن لحين محاكمتهما أمام السلطة المحلية .

وعلى كل حال مبروك يا شيخ « مصطفى » وأرجو بمجرد وصولك أسوان أن تزور الفيلا وتطمئن الجماعة هناك وتطلب منهم فوراً إرسال رسول ومعه طاقم ملابس جديدة وغيار لكل منهما ، وكان هذا ممنوعاً منذ دخولكم السجن بأمر مفتش الداخلية . أما النقود فممنوعة بتاتاً داخل السجن . وهذه هى تذكرة السفر ويمكنك أن تزور بقية زملائك للوداع . أما أنتما من الآن فلستما مساجين ولا معتقلين وإنما ضيوف إلى أن يأذن الله بالفرج . ولا يملك مفتش الداخلية ولا من هو أكبر منه أن يحاكمكم مرة أخرى بعد حكم المحكمة العسكرية . وستتغير المعاملة من اليوم وأنا المسئول . فلكما أن تمضيا الوقت مع زملائكم أو فى الحديقة أو فى مكتبي . وتتناولون الطعام كالمعتاد . أما المبيت فسيكون فى مستشفى السجن . وقد أعددنا لكما غرفة خاصة مريحة . وذهبنا مع الشيخ « مصطفى » إلى غرفة جلوس الزملاء وأعلنا خبر الإفراج عن « مصطفى » فقابلوه بالعناق والتقبيل . وطال عناق الأستاذ « مصطفى » المحامى لسميه . فارتجل « الشيخ الأقصرى » على البديهة هذين البيتين .

ضاقت علينا حجرة ... بالسجن ليس بها صفا
ومن العجائب مصطفى ... فيها يعانق مصطفى

فضحكنا وودعنا الشيخ ورحل .

وبعد تناول العشاء ذهب زملاؤنا إلى عنبر السجن للمبيت كالمعتاد وذهبنا نحن إلى مستشفى السجن فوجدنا غرفة نظيفة مريحة ذات سريرين وبها حمام معد بالصابون والبشاكير والماء الساخن وتمورجى ساهر مكلف بخدمتنا ، فهرعنا إلى الحمام لنزيل ما تراكم علينا من أوساخ طوال مدة السجن . وصليت ركعتين لله شكراً على إنقاذى من حمام السجن والحلاق . فقد كان حمام السجن به عدد من الأدشاش المكشوفة للعيان دون ساتر . فيخلع المساجين ملابسهم ويدخلون عرايا دفعة دفعة تحت نظر السجانين ويقفون تحت أدشاش الماء البارد كما ولدتهم أمهاتهم ويعطيهم السجان قطعة صابون واحدة للجميع فيتخاطفونها وينثرون الماء هنا وهناك ويتهارشون فى أتم سرور وصخب كالأطفال . وينسون متاعب السجن ولو لبضع دقائق . وكان من المستحيل أن أجاريهم ، فلم أدخل الحمام طيلة أيام السجن وكنت أكتفى بغسل رأسى وذراعىّ ورجلىّ من حنفية غسيل الأيدى . ولم أكن أستطيع استعمال المرحاض البلدى والجلوس القرفصاء إلا بمشقة ولذلك لم أكن أقربه إلا مرة كل ثلاثة أو أربعة أيام . وقد ألفت الإمساك المزمن وآلام المغص . أما

الحلاق فكان يجز شعر الرأس كما تجز الخرفان بماكينة الصفر «نمرة زيرو» وتصير الرأس «زلطة» وينقل الماكنة من رأس إلى رأس بوسخها وعبلها . فامتنعت عنه وطال شعر رأسى حتى صرت كالناسك المتعبد فى مغارة الجبل ، ولم يكن شعر ذقنى قد طال بعد لصغر سنى والحمد لله .. ونمت ليلة هادئة فريدة حلمت فيها بأهلى فى أسوان ووالدى بالقاهرة .

وفى ظهر اليوم التالى دعينا لغرفة المأمور فوجدنا «طه كحالة» ومعه لكل منا طقم ملابس داخلية وخارجية كامل ، ولكنهم مرة أخرى نسوا الطربوش والحذاء . وتركنا المأمور معاً وخرج . وبعد تناول التحيات والسؤال عن أسرته وأسرتنا والإخوان والاطمئنان عليهم جميعاً أخبرنا أن جميع أهل أسوان والجزيرة علموا بالخبر الذى استشرى كالنار أثر وصول الشيخ «مصطفى» وهم يدعون لنا بالخير وينتظرون عودتنا بفارغ الصبر . أما المدير الجبان فهو ملازم منزله ، وقد جعله شعوره بالخجل والهزيمة — بعد أن طردت المحكمة بقية الشهود — يحتجب ولا يرى وجهه للناس الشامتين فيه . وتركناه برهه لتغيير الملابس . وعدنا فسلمنا له ملابسنا القديمة ، ووعد بالعودة بعد أسبوع وأحسسنا أننا صرنا آدميين مرة أخرى .

وبعد يومين دعينا إلى مكتب المأمور مرة أخرى، فوجدنا على مكتبه رجلا وقوراً لم نره من قبل ، وإلى يمينه ضابط بوليس مصرى وإلى يساره كاتب أمامه دفتر مفتوح . وبعد التحية قدمنا إليه المأمور وعرفنا أنه رئيس نيابة قنا . وقال الرجل: أهلا وسهلا بالأساتذة الثوار الوطنيين نواب « سعد باشا » و« الوفد المصرى » . تفضلوا بالجلوس فلى معكم كلمتان . ونظر فى ورق أمامه وقال : أنا مش عارف إيه اللى بينكم وبين مفتش الداخلية . الراجل المجنون ده له تصرفات غريبة غير قانونية وعامل دكتاتور فى البلد ولا أحد يستطيع أن يقف فى وجهه أو يصده » . وقال للمأمور : « أنت فاكر الأمر الذى أصدره بأن كل مصرى فى أى مكان مهما كانت مكانته إذا مر عليه ضابط إنجليزى بأى رتبة عليه أن يقف ويؤدى التحية العسكرية . وفاكر أخينا القاضى . . ه كان جالس فى المقهى ومر عليه ضابط إنجليزى مجرد ملازم، وكان يقرأ الجرنال فلم يره ، فعاد الضابط ومعه جنود مسلحين قبضوا عليه وأهانوه وأوسعوه ضرباً . وأنت يا حضرة اليوزباشى صدر لكم أمر بالوقوف والسلام باحترام واحتشام لأى ضابط إنجليزى ولو كان أقل منكم رتبة . وناقص يأمروا بالوقوف للعساكر كمان . وهكذا انقلبت الأوضاع » .

وقد عرف هذا الرجل المجنون أن المحكمة العسكرية برأتكم وليس له سلطان عليها فاستغل سلطته فى الحكومة المصرية وطلب إحالتكم إلى النيابة للتحقيق معكم من جديد وإحالتكم إلى محكمة الجنايات المصرية مخالفاً بذلك القانون . ولكنى أعرف كيف أرد عليه وأوقفه عند حده بالقانون مهما كانت النتيجة : افتح المحضر ياحضرة الكاتب واكتب :

إنه فى الساعة ... من يوم... الموافق . . . حضر أمامنا نحن رئيس نيابة قنا بسجن قنا بناء على طلبنا الأستاذان ... و ... للتحقيق معهما فى التهم الموجهة إليهما من جناب «المستر ماكنزتن» مفتش الداخلية ، توطئة لإحالتهما لمحكمة الجنايات ، بناء على أمره المذكور بخطابه رقم ... بتاريخ ... وبما أن هذا الطلب غير قانونى ومرفوض شكلا وموضوعاً لأن المحكمة العسكرية سبق أن نظرت هذه الدعوى وحاكمت الأستاذين على نفس التهم المذكورة فى الخطاب وأصدرت حكمها بالبراءة ، وحكمها نهائى واجب التنفيذ وغير قابل للاستئناف أو النقض أو أى وسيلة من وسائل الطعن . ولا يجوز للمحاكم المصرية أن تعيد النظر فى أحكام المحاكم العسكرية ، فبناء على المواد . . من قوانين . . . نقرر تحت مسئوليتنا أن الأستاذين المذكورين ...

لم يرتكبا أية جريمة (جناية أو جنحة أو مخالفة) يعاقب عليها القانون الجنائى المصرى . ولهذا نأمر بحفظ الدعوى نهائياً والإفراج عنهما فوراً ما لم تكن هناك أوامر من سلطات أخرى حكومية . . .

إمضاء وختم

وقال للمأمور : أنا عارف أنك لا تستطيع الإفراج عنهما إلا بأمر مفتش الداخلية وأنت معذور ولكن على كل حال أديت واجبى وسأرفع القرار للنائب العام ليتخذ الإجراءات القانونية لتنفيذ أمر النيابة . وأنتما تستطيعان أن تقاضيا مفتش الداخلية إذا لم يفرج عنكما بمجرد تسلمه قرار النيابة وتطالبان بالتعويض والأضرار ، ولكن أنصحكما بالهدوء والتريث وإلا دبر لكما تهمة أخرى. وحيانا فشكرناه وحمدنا له روح العدالة والوطنية ، وانصرف .

٢٠ أغسطس ١٩١٩

وشاء القدر الرحيم فى صباح يوم ٢٠ أغسطس ١٩١٩ ، وهو بالمصادفة يوم عيد ميلادى ، أن استدعانا المأمور إلى مكتبه وبلغنا فى سرور بالغ أمر الإفراج عنا وترك السجن فوراً والسفر إلى أسوان رأساً بالقطار بتذاكر الدرجة الثالثة لأن مفتش الداخلية يريد إذلالنا حتى فى آخر لحظة . وبالطبع لم تكن معنا نقود لنركب الدرجة الثانية على الأقل وندفع الفرق . فشكرناه وذهبنا نودع زملاءنا وعدنا إلى المكتب فوجدنا ضابط بوليس مصرى وشرطيين مكلفين بمرافقتنا إلى المحطة والانتظار حتى يقوم القطار منعاً لاختلاطنا بالأهالى . ولكن اتضح أن ناظر محطة « قنا » رآنا وعرفنا فأبرق إلى ناظر محطة «الأقصر» وهذا بدوره إلى ناظر محطة « أسوان » وانتشر الخبر فى المدينة وكان لذلك أثر كبير فى استعدادهم لاستقبالنا .

وهناك فى الدرجة الثالثة تطلع الركاب فى دهشة لشعورنا الطويلة وطرابيشنا وأحذيتنا القذرة التى لا تتفق مع ملابسنا الخارجية الأنيقة ، وحاروا فى أمر ركوبنا الدرجة الثالثة

وازدادت حيرتهم عند ما سلم علينا ضابط البوليس عند تحرك القطار . وانتحينا ناحية فى مؤخرة العربة بعيدين عن الإنظار المتطفلة . ونزلنا محطة « الأقصر » حيث يتعين الانتظار بضع ساعات لنركب القطار الصغير إلى « أسوان » . وهناك على الرصيف وجدنا فى انتظارنا (ا . ن) مأمور بوليس «الأقصر» ومعه ضابط آخر .

فتقدم منا وحيانا وقال : أهلا وسهلا بثوار أسوان الوطنيين . أنتم ضيوفنا إلى أن يقوم القطار . فقلت ممازحاً . لعلها ليست ضيافة ولكنه أمر بعدم نزولنا المدينة والاختلاط بالأهالى . فقال وهو يتكلف الضحك : إنها ضيافة على كل حال لم يكن لها ضرورة . فالكل هنا يعرفونكما ويتتبعون أخباركما ولا ينسون يوم ١٣ يونية . وقد عرفوا موعد وصولكم من ناظر المحطة الذى لا تبتل فى فمه فولة ، ونحن لا نريد مظاهرات هنا . ووصل الخبر طبعاً إلى « أسوان » ، وأخشى أن يعدوا لكما مظاهرة كبرى فتعودان إلينا ، فقال : « حبيب » : وهل يليق أن ننزل « أسوان » ونقود المظاهرة ونحن بهذا الشكل القذر كما ترى . أقل ما يجب الآن حلاقة الرأس ومسح الحذاء وكى الطربوش . فقال المأمور : على العين والرأس كل الطلبات مجابة . فقلت :

لكن ليس معنا نقود ؟ فقال : هذا من واجب الضيافة . وذهب بنا إلى صالون حلاق أمام المحطة وجاء ماسح الأحذية وأرسلت الطرابيش للمكوجى . ورفض كل من الحلاق وماسح الأحذية والمكوجى أن يتقاضوا أى أجر على خدماتهم وأصروا على رفض ما قدمه المأمور. فقال : أرأيتم كيف يعرفكم الناس هنا ويقدرونكم ؟

ثم اصطحبنا إلى مقهى مجاور للمحطة واختار مكاناً منعزلا وبعد الشاى والقهوة والسجاير بدأنا نتبسط فى الحديث ، فقال : « أنا والله محتار فى أمركم . أنتم لغز لا بد وراءه سر . شبان أذكياء متعلمون فى مصر وإنجلترا ومن أسرات طيبة وأمامكم مستقبل زاهر يبشر بكل نجاح ، تركتم أسركم ومجالكم الفسيح فى القاهرة وجئتم إلى منفى أسوان بمحض اختياركم، علشان إيه كل ده . علشان وظيفة فى مدرسة حرة فقيرة ومرتب صغير تصرفون أضعافه فى الفيلا . مش معقول . أنتم ساكنين فى فيلا فخمة وعايشين أحسن من المدير ذاته وكل يوم عزائم وولائم كما بلغنا . أمال جئتم ليه ولماذا اختاركم سعد باشا نواباً عن الوفد وترك الأعيان والتجار ، بس علشان تعملوا حكام لمدة أسبوعين وتعملوا مظاهرة وتقلبوا الدنيا . مش معقول . شغل مجانين ولعب عيال ،

والنتيجة إيه ، حبس واعتقال وإعدام لولا تدخل القدر فى آخر لحظة. كسبتم إيه ولا البلد كسبت إيه . كل البلد من القاهرة وبحرى وقبلى كسبت إيه من الثورة غير السجن والاعتقال والنفى والإعدام والخراب والدمار والموت . وزخرى فشلت كما فشلت ثورة عرابى من قبل . لعب عيال وعبط . عمل مجانين يلعبوا بالنار » . وسكت وهو يلهث فانتهزت فرصة سكوته ، وقلت : أنت تتكلم بلسان مفتش الداخلية تماماً كأنك إنجليزى ولست مصرياً . وأنت معذور لأنك لست مأموراً كما نتوهم وإنما أنت العبد المأمور . نحن كما تقول ثوار وطنيون ونواب عن زعيم الأمة « سعد باشا زغلول » اختارنا دون أعيان وتجار أسوان لأننا أرقى تعليماً وأوسع ثقافة منهم ومنك ، واحتملنا السجن والاعتقال فى صبر وواجهنا حكم الإعدام فى هدوء . فيجب أن تتحفظ فى كلامك معنا وتحسن اختيار ألفاظك . وإذا كنا ضيوفك كما قلت فليس من اللياقة أن تشتم ضيوفك . فتصنع الابتسام وقال : « أنا والله قلبى عليكم ولا أريد أن تتحملوا التجربة القاسية مرة أخرى . كيف غاب عنكم أن الإنجليز حكام البلد وأسيادها ونحن عبيدهم ولن يخرجوا أبداً ، وهم أقوياء ونحن ضعاف » فقاطعه : « حبيب » ، قائلا : هل كان عرابى

بجيشه الصغير الضعيف يعتقد أنه يستطيع أن يهزم الإمبراطورية البريطانية بأسطولها الجبار وجيشها الجرار ؟ وهل كان الشاب « مصطفى كامل » بجهده الفردى ، ولسانه وقلمه ، يعتقد أنه أقوى من إنجلترا ؟ وهل الشيخ المسن « سعد زغلول » يعتقد أنه بالشعب الأعزل يطرد الإنجليز من مصر ؟ كلا يا حضرة المأمور المصرى الجنسية والمولد الإنجليزى النزعة والأفكار ! المسألة ليست قوة مادية ، وإنما هى إيمان بالله والوطن وثقة بالنفس وتضحية فى أداء الواجب وفداء من أجل تحرير البلاد. وإذا كانت ثورة عرابى قد فشلت بسبب خيانة «الخديو » التركى « وسلطان باشا » الإقطاعى و«خنفس » الضابط المصرى وبعض مشايخ العربان الأفاقين ، وقد تفشل هذه الثورة بسبب نزعة الغرب الصليبية ضد الإسلام والعروبة ، فلا بد أن يأتى يوم يهيئ الله فيه لمصر جيلا جديداً من الثوار الأحرار يحررون مصر من الاحتلال والاستعمار كما فعل « أحمس » و « صلاح الدين » ويطهرون البلاد من الفساد والإفساد ، وإن ربك بالمرصاد . فهز المأمور رأسه وقال : «لكم دينكم ولى دين ، وأنا مبدئى ، لا تعاند من إذا قال فعل . ومن يجارى الإنجليز يأكل سمن وعسل ويقبض ذهب ، ومن يعاند يشرب خل ويأكل بصل وياخد فوق دماغه.

وأنا والله قلبي عليكم وهذه مجرد نصيحة على كل حال» . فقلت : هناك حكمة قديمة لعلها صينية تقول : إن الشيء الذى نعطيه دائمًا ونأخذه أحيانًا ولا نعمل به أبداً هو النصيحة . وخاصة إذا كانت مثل نصيحتك. وشكراً لك على كل حال ، ولكن لا تنس أننا تلاميذ «جمال الدين الأفغانى » و « الأمام محمد عبده » وزملاء الشاب « مصطفى كامل » ونواب الشيخ « سعد زغلول » بل نحن أكثر تعليمًا وأوسع ثقافة وأحدث عصراً ، وربما عند ما نكبر نعمل أكثر وأكثر ، وتكون أنت أكبر وأكبر بفضل الإنجليز . وكفى الله المؤمنين القتال . وانتهى الحديث عند هذا الحد حتى لا يسمع الرجل أكثر مما سمع . وقد التزم الرجل مبدأه فظل يرقى فى كنف الإنجليز حتى صار فى آخر الأمر باشا ومديراً لإحدى مديريات الوجه البحرى الكبيرة ، وأغفل التاريخ ذكره فى جملة من أغفل ، والله غفور رحيم .

وحان موعد قيام القطار إلى « أسوان » فودعنا المأمور ، وشد الضابط الآخر الذى لم يشترك فى الحديث ولكنه كان ينصت باهتمام بالغ وعلامات التأثر تبدو على وجهه بين حين وآخر ، على أيدينا مراراً ونظرات الإعجاب تتجلى فى عينيه . وبعد أن تحرك القطار وسار المأمور فى طريقه إلى خارج المحطة التفت

الضابط إلينا وأخذ يلوح بيديه ومنديله كأن حديثنا الوطنى قد مس شغاف قلبه .

وحدث فى العربة حادث عجيب . ذلك أن الركاب الأسوانيين عرفونا فأقبلوا علينا يحيون ويهنئون وأفردوا لنا مكانـًا فى العربة وأعدوا فراشـًا وطعامـًا ، فأكلنا ونمنا نومـًا عميقـًا ، استيقظنا منه عند وقوف القطار بمحطة « إسنا » على صوت « طه كحالة » وشابين من أسرة « النجار » وتعانقنا والدموع تترقرق فى الأعين . وأخذ « طه » يحدثنا عن الخبر الذى وصل بسرعة البرق إلى « أسوان » ، وأن المدير أعد حرسـًا مسلحـًا لإنزالنا بمحطة الجزيرة والتوجه بنا إلى الفيلا فوراً لأن مفتش الداخلية موجود بأسوان وسيركب نفس القطار إلى الشلال . وسيكون فى توديعه على رصيف المحطة بطبيعة الحال المدير وكبار الموظفين وضباط البوليس . وهو يخشى إن نزلنا « بأسوان » أن يحدث من الشعب ما يغضب المفتش عليه . وقال « طه » : وقد عرفنا هذه اللعبة و بإذن الله سنفسدها ، لأن أفراد أسرة « النجار » المسلحين سيكونون متربصين بمحطة الجزيرة ويمنعون رجال البوليس من الوصول إلينا ، ويجعلون السائق يستمر بالقطار دون توقف . وفى أسوان سيكون الأهالى جماعات جماعات متفرقة

حول المحطة منعًا للفت الأنظار حتى إذا وصل القطار انضموا فى موكب كبير ، وأعدت عربات الحنطور لاختراق المدينة إلى القيلا .

وقد كان ،ونزلنا من القطار فى محطة « أسوان » ولمحنا المدير فنظر للحكمدار نظرة طويلة حائرة يلوح فيها الفزع ، وحاول أن يشغل مفتش الداخلية بالحديث ويحول أنظاره عنا . وما كاد المفتش يدخل عربة القطار الخاصة والقطار يتحرك حتى اندفعت الجماهير تلتف بنا وتهتف بدوى كالرعد : يحيا سعد ، يحيا الوفد ، يحيا «مظهر » و «حبيب » . وأطل المفتش من نافذة القطار ورأى المنظر وسمع الهتافات وتردد كأنه يفكر فى النزول ثم أغلق النافذة واختفى. أما المدير فقد صعق ووقف جامداً وحاول أن يخرج إلى عربته ولكن الجماهير حالت دونه . . . وحملنا الشعب على الأكتاف إلى عربة حنطور مكشوفة اخترقت بنا شارع النيل على مهل ووراءنا رتل من العربات تردد هتافات راكبيها والرجال الوقوف على جانبي الطريق يصفقون ويهتفون والنساء يزغردن وأصحاب المقاهى والحوانيت يوزعون الشربات .

ووصلنا باب الفيلا الكبير فوجدنا الوالدة والإخوة فى الانتظار وبعد العناق والقبلات شكرنا المرافقين ودعوناهم للقهوة والشاى

والشربات فرفضوا شاكرين ليتركونا مع الأهل بعد هذا الفراق الطويل . وقضينا ثلاثة أيام نستقبل المهنئين نهاراً ونحكى للأسرة تفاصيل ما حدث ليلا حتى الساعات المتأخرة من الليل . والحديث طويل والتفاصيل كثيرة .

وحكت لنا الوالدة عما حدث منذ اعتقالنا فقالت : إنها توجست خيفة من حضور ضابط البوليس ودعوة المدير لنا للغداء وحضر الحكمدار مسرعاً على جواده ودخل من الباب الخلفى للحديقة ونادى على الوالدة وأعطاها كلمة السر. فانطلقا معاً وجمعا المسدسات والطلقات والأوراق ووضعاها فى صندوق صغير وتسللا إلى الباب الخلفى دون أن يراهما أحد. ونصحت الوالدة بدفن الصندوق فى الحديقة فى مكان غير مطروق لأن فى وجوده معهخطراً كبيراً عليه ،وانتهت المهمة بسرعة وعاد الحكمدار من الباب الخلفى كما جاء ، وما كاد يغيب عن النظر حتى جاءت سرية إنجليزية على رأسها ضابط إنجليزى وآخر سودانى للترجمة ، وفتشوا الفيلا تفتيشاً دقيقاً بحضرة والدتى ، وانصرفوا والضابط الإنجليزى حنق أشد الحنق لأنه لم يجد شيئاً ، ونادى الضابط السودانى الوالدة وقال لها : الحمد لله يا والدتى والله المنجى. ولم تظهر الوالدة أى ارتباك أو خوف ولم تسأل عن السبب

لأنها علمت نبأ القبض علينا من الحكمدار .

وحضرت على أثر ذلك سرية سودانية لحراسة الفيلا ونصبوا خيامهم حولها خارج الحديقة . وقابل ضابطهم الوالدة فرحبت به وظنها فى أول الأمر إفرنجية ، فلما تجاذبا أطراف الحديث وحكت له عن جدى « حاكم السودان العام » و « حبيب » نقيب الميرغنية أبدى الرجل شدة أسفه لاعتقالنا ولحضوره مع الجنود كحراس ؛ ولكنها الأوامر تقضى بالحراسة ومنع الدخول والخروج ، وهو مضطر لتنفيذ الأمر نهاراً خشية التفتيش ، ولكنه سيغض الطرف أثناء الليل . فأرسلت الحارس « ركابى » ليطلع أسرتى « النجار » و « كحالة » بهذا الخبر .

وفى المساء بعد العشاء أرسلت الشاى والسجاير للضابط والجنود ، وبدأ أولاد « النجار » يتسللون للفيلا ومعهم الخرفان والطيور والسمك والدقيق والسمن والسكر ؛ وتلاهم الأعيان بالشاى والبن والسجاير والمعلبات والمربيات وغير ذلك من أصناف البقالة . وكثر الخير فى الفيلا والحمد لله ولم تحتج الأسرة لشىء من الخارج . وكانت أحياناً تدعو الضابط والجنود للعشاء داخل الفيلا أو شرب الشاى بعد الظهر وتجالسهم وتحادثهم حتى أحبوها وتفانوا فى خدمتها . وعرض الأصدقاء

عليها أموالا ، ولكنها رفضت بحجة أن لديها الكثير . ولم يكن هذا صحيحاً فالقليل المتبقى معها كاد أن ينفد والمدرسة لم تدفع مرتبات مارس . والاتصال بالقاهرة غير ممكن . وعرض وكيل البنك الأهلى أن يعطيها سلفة تسددها بعد عودتها ، ولكنها رفضت شاكرة ، وجاء مأمور السجن وقدم لها مائة جنيه فلم تقبلها إلا بعد أن أقسم أنها كانت ديوناً لنا على بعض الأصدقاء ، والحقيقة أنهم جمعوا هذا المبلغ فيما بينهم وجازت الحيلة على الوالدة .

وذات صباح حضر « المدير » فى عربته وحوله حراس مسلحون من رجال البوليس كأنه فى موكب رسمى ودخل الحديقة من الباب الكبير ، وهرول «ركابى» يخطر الوالدة برغبة « المدير » فى مقابلتها ، فوقفت فى الشرفة ونادت الضابط السودانى فحضر مع سرية من الحرس ، وكانت قد أخبرتهم بالدور الذى لعبه « المدير » فأنكروا عليه نذالته ، واقترب « المدير » من الشرفة . فقالت له فى حزم : قف مكانك لا تتقدم . ماذا تريد ؟ هل تريد أن تقبض علينا نحن الآخرين . وفزع « المدير » من هول المفاجأة ، ودار الحديث على مسمع من الجميع كما يلى :

المدير : صباح الخير يا هانم أفندى . أنا آسف جداً لما حصل ولا ذنب لى فيه والله العظيم . وأنا والمديرية كلها فى خدمتكم

ورهن إشارتكم ومستعد لإجابة كل طلباتكم ، أؤمرى وعلينا الطاعة .

الوالدة : ماذا فعلت بزوجتك المسكينة التى أتسدمت عليها ؟ هل طلقتها كما حلفت لهم ثلاثا أمام الشهود وكذبت عليها كما كذبت عليهم . اخرج يا رجل ولا ترنى وجهك ، وسيكون بيننا وبينك حساب عسير وكل آت قريب. نحن والحمد لله فى غنى عنك وعن أمثالك ، وإذا لم تخرج فى سلام فسأكلف الحرس السودانى إخراجك بالقوة ، وليس لك عليهم سلطان .

وتلفت الرجل حوله فرأى الجميع حتى حراسه ينظرون إليه شذراً ، فحنى رأسه فى خجل وخرج . واقترب الضابط السودانى من والدتى وقبل يدها فدعته للجلوس وشرب القهوة وأخذ يقول : سيدة ولا كل السيدات . شجاعة أم الشجعان . وتناقل أهل « أسوان » هذا الحديث فزادهم إكباراً لها وتقديراً لشجاعتها وبطولتها إلى حد أن الوالدات أخذن يسمين بناتهن « فاطمة » على اسمها « فاتيمه » والأولاد « مظهر » ، و « حبيب » .

وفى اليوم الرابع ركبنا « أنا »و « حبيب » — عربة الحنطور وطفنا بها المدينة لرد الزيارات للرجال ، والوالدة عربة مكشوفة

أخرى لزيارة السيدات . وكادت تحدث مظاهرة أخرى لولا أننا ناشدنا الأهالى أن يخلدوا إلى الهدوء فكفانا ما لقينا من عذاب المعتقل والسجن .

ولم يمض أسبوع حتى طلبنا للمثول أمام المحكمة لحضور جلسة القضية التى رفعها ضدنا مجلس إدارة المدرسة يطالب فيها بالتعويض عما لحق المدرسة من أضرار بسبب انقطاعنا عن العمل ، وكان القاضى « على حيدر حجازى » فوجه إلينا الكلام قائلاً : إن عريضة دعوى إدارة المدرسة تنسب إليكما أنكما تركتما العمل بالمدرسة قبيل آخر السنة الدراسية مخالفين بذلك شروط عقد التعيين مما يوجب تنفيذ الشرط الجزائى وهو دفع مبلغ يوازى مرتب ثلاثة شهور إلى جانب التعويض عن الأضرار الأخرى المذكورة فى العريضة ، فامتناعكما عن التدريس فى تلك الفترة بالذات وهى أهم جزء فى السنة الدراسية كان له أسوأ الأثر فى نتيجة الطلبة فى امتحان الكفاءة العام ، وعلى سمعة المدرسة لدى وزارة المعارف وأولياء أمور الطلبة ، وربما قطعت الوزارة إعانة المدرسة أو على الأقل خفضتها وأنزلت مرتبتها . والتفت إلى الأستاذ « رزق سليمان » محامى المدرسة وعضو مجلس الإدارة وقال : أليست هذه طلباتكم يا أستاذ ؟ فأجاب : نعم

يا سعادة القاضى . إن إدارة المدرسة تطالب كلا من الأستاذين دفع ما يوازى مرتب ثلاثة شهور بحسب الشرط الجزائى فى العقد (٤٢ جنيها) و (خمسين جنيهاً) تعويضاً عن الأضرار المادية والأدبية ومصاريف الدعوى وأتعاب المحاماة . وأراد أن يسترسل ، فقال القاضى : لا داعى للمرافعة يا أستاذ فالمحكمة تعرف الموضوع من أوله لآخره، وتعرف كذلك أن الأستاذين قاما بواجبهما كاملا على نحو يستحق الشكر والتقدير بدلاً من الضرر والتعويض . بل إنهما قاما بأكثر من الواجب ، وبثا روح الحياة فى المدرسة وخلقاها خلقاً جديداً بما استحق تقدير الطلبة وأولياء أمورهم وأهل « أسوان » وصارت لها سمعة طيبة محترمة بعد أن كانت ميتة واكدة لا يحس بها أحد . و « أسوان » كلها معجبة بما قاما به من نشاط ثقافى ورياضى واجتماعى وما نظماه من عروض ومسابقات وحفلات حضرناها وسعدنا بها . وثابت أن نتيجة المدرسة هذا العام فى امتحان الكفاءة لم تتأثر بغيابهما بل إنها أفضل بكثير مما كانت فى السنوات السابقة لحضورهما ، وقد راجعت بنفسى نسب النجاح فى السنوات السابقة فى الوقائع المصرية . وثبت أيضاً أنهما أتما المناهج المقررة قبل انقطاعهما عن التدريس، وكانا يراجعان الدروس مع

الطلبة فى حين أن المدرسين الآخرين كانوا متخلفين بعض الشيء . والطلبة هنا فى « أسوان» ينقطعون عن المدرسة عادة للمذاكرة فى البيوت من أول أبريل . أما الوزارة فلا شأن لها بإدارة المدرسة فهى مدرسة حرة ، ولا يعنيها فى تقدير الإعانة السنوية إلا نتيجة الامتحان العام . وقد علمت أن الإدارة نظراً لحسن نتيجة هذا العام سترفع درجة المدرسة وتزيد إعانتها وأنتم تعلمون ذلك. أما عن أولياء الأمور فهم جميعاً مدينون بالشكر للأستاذين لأدائهما واجبهما على الوجه الأكمل ورعايتهما لأولادهم وحسن صلتهما بآبائهم. وقد ارتفعت مكانة المدرسة عند كافة الشعب بعد أن أثبتت أنها مؤسسة وطنية تجارى الشعور القومى العام . . وإذا جاز للمدرسة أن تطالب بتعويض يوازى مرتب ثلاثة شهور فإن مدة الانقطاع الحقيقية لا تتعدى أربعة أيام فى يوم ٢٧ مارس إلى أول أبريل . كما أن للأستاذين الحق فى مرتب شهور العطلة الصيفية الثلاثة كاملاً مهما كانت الظروف ، فضلا عن أن الانقطاع كان لظرف قهرى لا يد لهما فيه . ولست أدرى لماذا لم تدفع المدرسة للآن مرتب شهر مارس مع أنهما قاما بالعمل فيه ٢٦ يوماً . . . والمدرسة إذن لم يقع عليها أى ضرر يستوجب التعويض ، وأما الضرر كله فقد وقع عليهما

لما لحقهما من سجن واعتقال وتعذيب ، لا لمصلحة خاصة ، وإنما دفاعاً عن قضية الوطن ومصلحةالشعب كله ، وأنتم منه ، وهذه تضحية من أجل الوطن، من أجلنا جميعاً نحن وأولادنا وأحفادنا يجب أن تقابل بكل تقدير وإكبار ، وفضلا عن ذلك فقد حكم عليهما بالإعدام ولكن شاءت إرادة الله الرحمن الرحيم أن لا ينفذ الحكم. ولعلهما الآن لا يملكان مصاريف العودة إلى الأهل ولا وسيلة الانتقال ، وربما سداد الديون التى يحتمل أن تكون قد استجدت أثناء فترةالاعتقال الطويلة ، والاتصال بالأهل متعذر . لهذا أنصح بالصلح بينكما على أن تشطب الدعوى وتلتزم إدارة المدرسةبالمصاريف وأتعاب المحاماة وتدفع لكل منهما مرتب ٢٦ يوماً من شهر مارس ومرتب شهور العطلة الصيفية الثلاثة بالكامل . ولا أحب أن أشير إلى أن ناظر المدرسة وسكرتيرها كان من الممكن أن يشهدا ضدهما أمام المحكمة العسكرية لولا أن المحكمة رفضت سماع جميع الشهود . وحسناً فعلت . ولو حدث هذا لكان وصمة عار فى جبين المدرسة إلى الأبد، وإذا رفضتم الصلح على هذا الأساس فستحكم المحكمة لهما بالإضافة إلى ما ذكرت بمرتب شهرى مايو ويونية ، لأن الانقطاع عن العمل كان لظرف قهرى

خارج عن إرادتهما كما ذكرت من قبل ، وكذلك بمكافأة توازى مرتب شهر عن كل سنة خدمة إلى جانب التعويض عن الضرر. ورفعت الجلسة للاستراحة لنصف ساعة .

وتداول الأستاذ رزق المحامى مع رئيس الجمعية وأمين صندوقها ، ونصحهم الأستاذ «حليم برسوم» رئيس النيابة بالقبول وعادت المحكمة للانعقاد وأقر الأستاذ «رزق» الصلح ودفع لكل منا ٥٥ جنيهاً وتمت المخالصة وشطبت الدعوى . وعاد رئيس الجمعية فاعتذر اعتذاراً شديداً وطلب منا تجديد العقد لسنتين أخريين مع رفع المرتب الشهرى جنيهين ، فوعدناه بالنظر وإرسال الرد بعد وصولنا القاهرة . ولكننا لم نجدد العقد وانتهت أيامنا فى «أسوان» بحلوها ومرها ولم تبق إلا ذكرياتها .

وزارنا بعدئذ مفتش الرى زميل والدى وأخبرنى أن والدى أرسل «رفاصاً» بخارياً ليحملنا إلى القاهرة وهو فى الطريق إلينا . وفى يوم ١٥ سبتمبر حضر الرفاص فحملنا أمتعتنا وأقفلنا الفيلا وأرسلنا المفاتيح مع الحارس «ركابى» مع الإيجار المتأخر وخطاب شكر وتحية لوكيل البنك الأهلى ، وركبنا على بركة الله دون أن نخبر أو نودع أحداً تفادياً من لحظات الوداع الحساسة المؤلمة . ووصلنا القاهرة بسلامة الله .

سنة ١٩٤٤

وفى سنة ١٩٤٤، بعد ربع قرن بالضبط من الثورة — شاءت الظروف دون سابق تفكير أو تدبير ، أن أزور « أسوان » فى مهمة رسمية تستغرق ثلاثة أيام للتفتيش على معاهد المعلمين والمعلمات والمدرسة الثانوية ، وكنت وقتئذ مفتشاً عاماً بوزارة المعارف . ومن عجيب الصدف أنى وصلت فى نفس اليوم الذى بدأت فيه الثورة وهو ١٥ مارس .

وذهبت بعد الظهر مع لفيف من رجال التعليم إلى النادى على شاطئ النيل ، لحفل شاى أقاموه لى ، وكان من بين المدعويين مدير « أسوان » وكبار الموظفين ، وكان هناك ماسح الأحذية « مصطفى » وكان قد كبر سناً وتهدل جسماً . وما إن سمع اسمى ووقعت عينه علىّ حتّى ترك ما فى يده وأقبل مهرولاً يقبل يدى ويعانقنى ويقول فى تحمس والدموع تترقرق فى عينيه : « مظهر البطل جه ياولاد . غبت عنا غيبة طويلة وما كانش يصح منك ، إذا كنت نسيتنا فنحن فاكرينك ولا ننساك أبداً ، أمال فين "حبيب" ؟ » ودهش الحاضرون من

هذه المفاجأة العجيبة وسألونى فقلت بإيجاز : نحن معارف منذ أن كنت هنا سنة ١٩١٧ – ولم أشر إلى ثورة ١٩١٩ فليس هناك داع للتفاخر بجهاد مضى وانقضى منذ ربع قرن وأصبح فى ذمة التاريخ ، وعلى الأقل فى ذاكرتى إن كان التاريخ نسيه ولم يسجله .

وانطلق « مصطفى » يذيع الخبر كعادته القديمة ، وراح يخبر الأصدقاء القدماء بحضورى . وبعد فترة طويلة أقبل فوج كبير منهم للتحية حتى امتلأ النادى وظن المدير فى أول الأمر أنهم قادمون لمقابلته فى شأن ما ، فقام لمقابلتهم ، ولكنهم تركوه وأقبلوا نحوى بالعناق والقبل والسؤال عن حبيب والوالدة وإخوتى . وسألهم المدير عن المناسبة فقالوا له فى حماس : هذا البطل مظهر قائد الثورة وحاكم الإقليم سنة ١٩١٩ ، فازددت حرجاً ورجوتهم عدم الإشارة للثورة ، ولكنهم لم يستمعوا لى وأخذوا يلقون على مسامع رجال التعليم تفاصيل ما حدث سنة ١٩١٩ ويسترجعون كل لحظة من لحظاتها فى انفعال وحماس وعتبوا على عتباً شديداً لانقطاع الصلة طول هذا الوقت وكأننا نسينا « أسوان » التى لن تنسانا مهما مرت الأيام والأعوام . وقالوا للمستمعين : نحن الكبار نذكر حوادث هذه الثورة وما كان

فيها من بطولات وتضحيات بكل فخر واعتزاز لأن إقليمنا قام بدوره المجيد فيها ، ونرويها لأولادنا وأحفادنا حتى أصبح الكل يعرفون « مظهر » و« حبيب » ، بل إننا أطلقنا أسماءهم على الكثير من أولادنا تخليداً لذكرى هذه الثورة « ثورة ١٩١٩ » وحاول كل من الحاضرين أن يستضيفنى وكانت فى الواقع مشكلة وتخلصت منها بأنى جئت لعمل متواصل يشغل كل وقتى ولدى تقارير طويلة أريد أن أنجزها ولذلك لم أنزل فى فندق وإنما فى استراحة المدرسة ، ولا أستطيع بحال أن أقبل ضيافة واحد منهم وأغضب الآخرين وهم جميعاً بمنزلة واحدة عندى ، وقضينا الليلة فى النادى نتناول أحاديث الثورة ، وعند الانصراف أقسم علىّ الشيخ « أبو بكر كحالة » أن أتناول طعام الإفطار بمنزله على عادة الأسوانيين .

وزارنى فى المدرسة صباحاً وصحبنى إلى منزله الجديد ، وفى الطريق أخبرنى عن وفاة شقيقه الأصغر البطل « طه كحالة » وهو فى عنفوان شبابه . وقال إنه ذهب إلى القاهرة بعد الثورة بخمس سنوات وسأل عنا وقابل الوالد والوالدة وعلم منهما أنى بإنجلترا وسأقضى سنوات طويلة ، وأن « حبيب » أصبح مفتشاً للتعليم بالإسكندرية وتزوج أختى . وبعد الإفطار جاء حفيده

« مظهر الصغير » وحياني بحماس الطفولة وأخذ يسأل عما فعلت في الثورة وكان جده قد حكى له الشيء الكثير ، وقال : « أنا بكره لما أكبر راح أبقى بطل زيك » ، فقلت : إن شاء الله وتكون أعظم مني وقبلته ، وانصرفنا لزيارة بقية الأصدقاء في منازلهم ومتاجرهم . ومررنا بدكان الأسطى « عبد الحميد » الحلاق وكان يغفو على كرسي الحلاقة ويغطي وجهه بمنديل ، فاقترب منه الشيخ « أبوبكر » وهمس في أذنه : « مظهر » هنا يا « عبد الحميد » . فقفز الرجل من كرسيه وهو يصيح : « مظهر » و « حبيب » . . . حلم ولا علم يا نهار أبيض يا ولاد ! وقبلني وعانقني وقال : يا سلام بعد الغيبة الطويلة دى مين يصدق ياولاد ، الحمد لله اللي عشت لحد ما شفتك تاني . وفين حبيب أمال . ليه ماجاش وياك . بالله عليك تتفضل معانا ولا تسبناش تاني . وذهبت في ختام الدورة إلى الجزيرة ليكون مسك الختام زيارة « آل النجار » ، الأوفياء الكرام ، فعلمت أن « النجار بك الكبير » نفسه وأولاده الكبار وكذلك « عبد الحميد أفندى » مأمور البريد قد توفوا إلى رحمة الله ، ولكن شباب الثورة الذين أصبحوا الآن رجالا عرفوني وأكرموني على سابق عادتهم ، ثم ذهبت وحدى إلى « فيلا منيرة » فوجدتها

كما كانت لم يتغير فيها شيء إلا « ركابى » الذى كبر وأصبح شيخاً مسناً . وسبحان الحى الذى لا يموت ، ولا أستطيع أن أعبر بالكلمات عن شعور « ركابى » عندما دقق فىّ النظر وعرفنى . وأخبرنى أن الفيلا بيعت لأسرة غنية أجنبية تأتى أسوان فى نوفمبر وترحل فى آخر فبراير ، وأن ما كان فيها من أثاث بيع بالمزاد العلنى . وذكر أنهم عندما حفروا حفرة فى الحديقة وجدوا صندوقاً به مسدسين أكلهما الصدأ وصارا خردة وأوراقاً أكلتها الرطوبة فصارت كالعهن المنفوش ، ولعل هذا هو ما كانوا يفتشون عليه . وأحضر لى كرسياً فى مدخل الحديقة وذهب إلى غرفته ليصنع لى فنجاناً من القهوة .

ووقفت على باب الحديقة الكبير ، وسرح الطرف وسبح الخيال ودار شريط الذكريات وعاد الماضى حياً ماثلاً أمامى كأن الزمن لم يتغير والأعوام لم تنقض . هنا فى « فيلا منيرة » موطن الذكريات الحلوة والأيام السعيدة حين كانت الحديقة تعج بالضيوف والأصدقاء .

هنا كانت موائد الشاى المرصوصة وكان الحديث والسهر .

هنا كان الأروام يغنون ويرقصون ويأكلون ويشربون .

هنا كان الطلبة يمرحون ويتبارون ويتسابقون .

هنا كان الجميع يجيئون ويذهبون وهم يدعون بالخير ويشكرون .

هنا جاء « المدير » واستمتع بيومه ، ثم خرج يحسد ويحقد .

هنا كان « مقر الحكم » و « المجلس الوطنى » و « اللجنة التنفيذية العليا » و « الحرس الوطنى » .

هنا كان يجىء « مدير البنك الأهلى » صاحب الفضل والمكرمة ونهديه من مخلفات « فريتزر فورل » .

هنا سلمناه جهاز اللاسلكى والشفرة السرية وتسلمنا خطاب الشكر .

هنا كان يأتى « عبد الرحمن أفندى » بالجراموفون والأسطوانات التى تشيع فى الدار أرق الأغانى وأحلى النغمات .

هنا أضفنا « برنارد باشا » وصحبه الاستعماريين وشرحنا لهم قضية الوطن وخرجوا مقدرين شاكرين .

هنا أطلق « مصطفى » الرصاص على ضابط البوليس لأنه من رجال المدير .

هنا حضر الحكمدار « على جواده » ليؤدى دوره الوطنى الخطير .

هنا حضر أصحاب المظالم والشكايات لحل مشاكلهم بعيداً

عن الروتين .

هنا طردت الوالدة « مدير المديرية » فى إباء وشمم .

هنا أشاد « الضابط السودانى » وسريته ببطولة الوالدة وشجاعتها .

هنا قابلت الأسرة أيام المحنة بالصبر والإيمان كما قابلت أيام المتعة بالحمد والشكران .

هنا . . .

هنا . . .

هنا . . .

وهنا أخيراً تم القبض والاعتقال .

وترقرقت الدموع فى عينى وانسابت ولم أستطع أن أحبسها فانهمرت وبكى معى « ركابى » الحارس العجوز الأمين .

ثم أفقنا وابتسمنا وحمدنا الله وشكرنا ، وقبلنا وسلمنا ثم ودعنا ، وانصرف كل منا إلى حال سبيله ، ونحن لا ندرى متى يكون العود واللقاء .

وطويت صفحة « أسوان » بما فيها من كفاح وجهاد ، وهناء وشقاء .

وحدثت بعد ذلك أحداث وأحداث ومغامرات ومخاطرات

فى مصر والخارج كلها ذيول « لثورة ١٩١٩ » فى « أسوان » .
ولعلى أوفق لتسجيلها فى كتاب أو كتب أخرى بمشيئة الله .

والعزة للجمهورية العربية المتحدة .

والمجد للعروبة .

والهزيمة للصهيونية والإمبريالية .

والنصر المؤزر للبطل المجاهد والقائد الملهم .

الرئيس جمال عبد الناصر .

والله ولى التوفيق

الفهرس

الصفحة

القرآن الكريم — الجهاد فى سبيل الله . . .

ثورة ١٩١٩ — من خطب الرئيس جمال عبد الناصر ٥

ثورة ١٩١٩ — من ميثاق العمل الوطنى. . . ٩

رسالة من المؤرخ العربى الكبير المرحوم الأستاذ
عبد الرحمن الرافعى ١١

رسالة من عالم التاريخ الحديث الأستاذ الدكتور
محمد أنيس ١٣

المقدمة ١٥

بذرة الثورة ٢٠

سنة ١٩٠٦ — مذبحة دنشواى وأول مظاهرة مدرسية . ٢٤

سنة ١٩١٤ — الحرب والحماية البريطانية وثورة الطلاب ٣٣

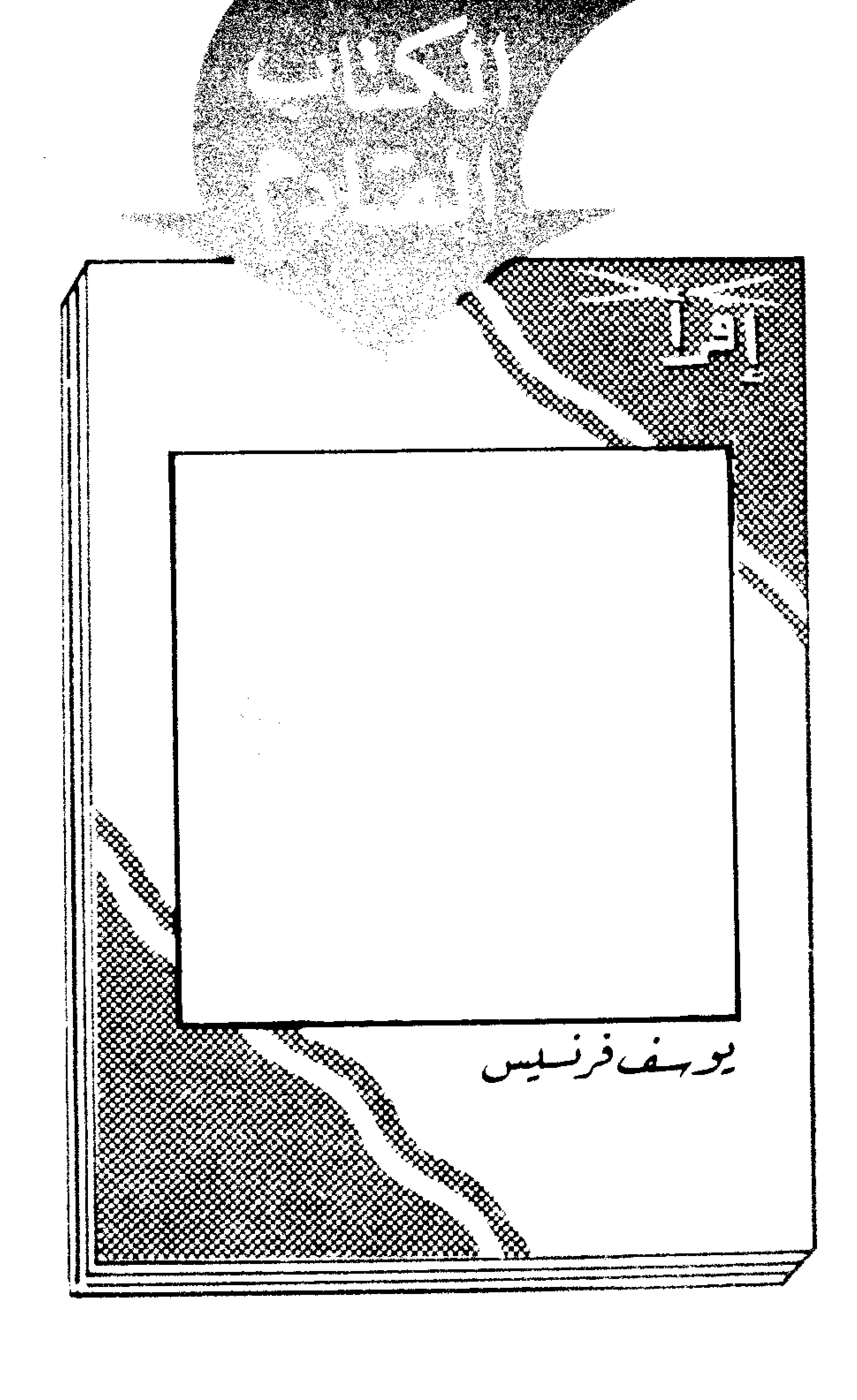
سنة ١٩١٧ — الانتقال إلى أسوان . . . ٤٦

سنة ١٩١٨ — الوفد المصرى ونيابتى عنه فى أسوان . ٥٤

سنة ١٩١٩ — بدء الثورة فى مصر . . . ٨١

الصفحة
١٥ مارس ١٩١٩ — بدء ثورة أسوان . . . ٩٦
٢٠ مارس ١٩١٩ — برنارد باشا وحديث الاستعمار . ١٠٨
٢٧ مارس ١٩١٩ — القبض والاعتقال . . ١٣٣
١٣ يونية ١٩١٩ — تنفيذ الحكم بالإعدام والمعجزة . ١٧١
٢٠ أغسطس ١٩١٩ — الإفراج . . . ٢١٣
١٥ مارس ١٩٤٤ — العودة لأسوان بعد ربع قرن . ٢٣٠

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٩


إقرأ
يوسف فرنسيس

دار المعارف بمصر

مكتبة الدراسات التاريخية

- مصر والسودان — للدكتور محمد فؤاد شكرى
  ٥٧٢ صفحة — قطع كبير — الثمن ١٥٠ قرشاً
- الدولة العربية الكبرى — للأستاذ محمود كامل
  ٦٣٦ صفحة — قطع كبير — الثمن ١٥٠ قرشاً
- العرب فى صقلية — للدكتور إحسان عباس
  ٣٣٢ صفحة — قطع كبير — الثمن ٥٠ قرشاً
- سيف الدولة وعصر الحمدانيين — للأستاذ سامى الكيالى
  ٢٣٦ صفحة — قطع كبير — الثمن ٤٠ قرشاً
- تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى — للدكتور على حسنى الخربوطلى
  ٤٥٠ صفحة — قطع كبير — الثمن ٩٠ قرشاً
- تاريخ الطباعة فى الشرق العربى — للدكتور خليل صابات
  (الطبعة الثانية معدلة ومنقحة)
  ٣٧٨ صفحة — قطع كبير — الثمن ٧٥ قرشاً
- الهيلينية فى مصر — للأستاذ زكى حسن
  ٢٤٤ صفحة — قطع كبير — الثمن ٦٠ قرشاً
- الفن الحربى فى صدر الإسلام — للأستاذ عبد الرؤوف عون
  ٣٥٢ صفحة — قطع كبير — الثمن ٦٠ قرشاً
- حضارات غارقة — للدكتور سليم أنطون مرقص
  ١٦٤ صفحة — قطع كبير — الثمن ٣٥ قرشاً
- طائفة الدروز تاريخها وعقائدها — للدكتور محمد
  (الطبعة الثانية)
  ١٢٨ صفحة — قطع كبير — الثمن

